في أصول التفسير

مقدمة جامع التفاسير

مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة

للإمام العلامة
أبي القاسم الراغب الأصفهاني

حققه وقدم له وعلق حواشيه
الدكتور أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الكويت

دار الدعوة
١٩

في أصول التفسير

مقدمة جامع التفاسير

مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة

للإمام العلامة
أبي القاسم الراغب الأصفهاني

حققه وقدم له وعلق حواشيه
الدكتور أحمد حسن فرحات
الأستاذ المساعد بجامعة الكويت

دار الدعوة
١٩



الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

دار الدعوة

الكويت - ص.ب   هاتف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً . والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيدنا محمد النبي الأمي ــ الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ــ وعلى آله وصحابته ، ومن سار على دربه ونهجه واقتفى خطاه إلى يوم الدين وبعد :

فهذه مقدمة تفسير الراغب الأصفهاني ــ وهي فصول في أصول التفسير ــ كانت قد نشرت في عام ١٣٢٩ هـ دون تحقيق ملحقة بكتاب « تنزيه القرآن عن المطاعن » للقاضي عبدالجبار ، وقد قام بنشرها محمد سعيد الرافعي ــ صاحب المكتبة الأزهرية ـ وطبعت بمطبعة الجمالية بمصر .

وقد وقعت على نسخة مصورة من هذه المقدمة مع تفسير للفاتحة وجزء من سورة البقرة في المكتبة المركزية لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، وجاءت تحت عنوان « النكات القرآنية » وهي مصورة من مكتبة طوبقبوسراي بتركية ، وقد وردت في فهارس المكتبة برقم 1616 EH - 6006 وهي في ٦٧ ورقة ، في كل صفحة ١٩ سطراً ــ اللوحة الأولى مذهبة ، وبعض الكلمات كتبت بالأحمر . والخط فارسي ، وليس فيها اسم للناسخ ، ولا بيان لتاريخ النسخ ، والظاهر من الخط أنها ليست قديمة . ولما كانت هذه المقدمة على غاية من الأهمية لأنها كما قلت فصول في أصول التفسير كتبت بقلم الراغب الأصفهاني المفسر المرموق ــ صاحب كتاب المفردات ــ كان لابد من تحقيقها وإعادة نشرها ، وذلك لأن النسخة المطبوعة والتي حاز ناشرها فضل السبق في طباعتها ونشرها لم تعد وافية بالغرض بالشكل الذي نشرت عليه ، فهي تحتاج إلى خدمة كبيرة في التحقيق والشرح ، لأنها كتبت بغاية الدقة والتركيز والاختصار ، يضاف إلى ذلك أنها لم تطبع إلا في عام ١٩٢٩ هـ ملحقة بكتاب « تنزيه القرآن عن المطاعن » فهي الآن تعتبر بمثابة المفقود ولم يشر صاحب المكتبة الأزهرية إلى النسخة الخطية التي اعتمد عليها في نشر هذه الرسالة ، وإن كانت مقارنتها بالنسخة الموجودة في دار الكتب ــ مكتبة تيمور ــ تشير إلى أنه قد اعتمد عليها في نشرها ، وقد اكتفى الناشر بكتابة هذا السطر على الصفحة الأولى من

الرسالة : « لا يسوغ لأحد أن يطبع هذه المقدمة إلا إذا أظهر نسخة خطية » .

وقد اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على كلا النسختين المخطوطة والمطبوعة ، وقد أشرنا إلى المخطوطة بحرف « ت » وإلى المطبوعة بحرف « ع » . وأما فيما يتعلق بتفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة فاعتمادنا على المخطوطة وحدها .

وكان عملنا في هذه الرسالة منصباً على تحقيق النص وضبطه وشرحه والتعليق عليه ، وعَزْوِ الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية ، ونسبة الأشعار إلى مصادرها من الدواوين الشعرية ما أمكننا ذلك .

واستكمالاً للفائدة أرى أنه لابد بين يدي هذه الرسالة من كلمة تعرف بحياة الراغب الأصفهاني وكتبه المتعددة .

الراغب الأصفهاني

اسمه ونسبه : هو الحسين بن محمد بن المفضل ــ أبو القاسم ــ الراغب الأصفهاني ــ كما جاء في كتاب « البلغة في تاريخ أئمة اللغة » للفيروز أبادي ص : ٦٩ ــ وهو أرجح ما روي في نسبه .

وقد أورده كذلك الزركلي في « الأعلام » : ٢٧٩/٢ ، وعمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » ٥٩/٤ وبروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » : ٢٠٩/٥ ــ ٢١٢ ، ومحمد كرد علي في « كنوز الأجداد » : ٢٦٨ ــ ٢٧١ ، وجرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » : ٤٧/٣ ، والخوانساري في « روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات » : ٢٤٩ .

وجاء في فهرس التيمورية : ١٠٨/٣ : « الحسين بن المفضل بن محمد الأصفهاني الملقب بالراغب » وورد في « بغية الوعاة » : ٣٩٦/باسم المفضل ، وكذلك ورد في مقدمة كتاب « الذريعة » . أما في مقدمة « المفردات في غريب القرآن » من تصنيفه فجاء بلفظ « ابن الفضل » .

وقد أسقط البيهقي في « تاريخ حكماء الإسلام » : ١١٢ ــ ١١٣ كلمة « الحسين » حيث جاء باسم : « الحكيم أبو القاسم بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني » .

ولادته ونشأته : لا تشير المصادر التي بين أيدينا إلى مكان ولادته ولا إلى زمانها ، وكل ما ورد فيها أنه من أهل أصبهان وسكن بغداد ، وإنه لأمر غريب حقاً أن يكون مثل الراغب الأصفهاني مجهول مكان الولادة وزمانها ــ وهو من هو في فضله وعلمه ــ وقد حاول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » ــ ٢٦٨ ــ ٢٧١ ــ أن يبين السبب في ذلك حينما قال :

« لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء والعمالات ، أو تقربهم منهم بالمنادمة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتآليفهم . وكم من عظيم لم يتولَّ قضاءً ولا عملاً للدولة بقي على خمول لا يكاد يشعر به ، ولا يعرفه غير بعض أبناء حيه . ومنهم على ما يظهر الراغب الأصفهاني . لم يترجم له حتى أصحاب الطبقات من أهل مذهبه » .

ثم يقول الأستاذ كرد علي بعد ذلك : « أما أين قرأ الراغب وعمّن أخذ ، وكيف نبغ ، وكيف

نفع ؟ إلى غير ذلك من خصائصه وحليته ورحلته ؟ فلم نقف على شيء منه يبلُّ الغُلَّة . وكانت أصفهان في أيامه عُشَّ العلماء والأئمة على ما كانت نيسابور ، لم تكن تخرج مدينة من المدن في فارس أمثالهم في كل فن ولاسيما الحديث وحفاظه ، على أننا لا نعرف إن كان الراغب نشأ في تلك المدينة الجميلة ، أم إنها موطن أسرته ؟ وهو عاش في مدينة أخرى من فارس ؟ » .

هذا ما ذكره محمد كرد علي في تعليل إهمال المصادر العلمية لمكان ولادته وتاريخها ، وهو أحد الاحتمالات التي يفترضها العقل في مثل هذه الحالة ، إلا أنه ليس لدينا ما يرجح ذلك أو يضعفه ، ويبقى الأمر موضع تساؤل واستغراب .

أما وفاة الراغب فقد كانت على الأرجح سنة ٥٠٢ هـ كما ذهب إلى ذلك معظم المحققين .

شهرته وألقابه العلمية : وصفه صاحب « روضات الجنات : ٢٤٨ » بأنه : الإمام الأديب والحافظ العجيب صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والأخلاق والحكمة والكلام وعلوم الأوائل وغير ذلك» فضله أشهر من أن يوصف ، ووصفه أرفع من أن يعرف » .

وقال فيه البيهقي في « **حكماء الإسلام** »: ١١٢ ـــ ١١٣ : « كان من حكماء الإسلام ، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه » .

وقال محمد كرد علي في « كنوز الأجداد » : « وغاية ما اتصل بنا من أخباره أنه كان صاحب لغة وعربية وحديث وشعر وكتابة وأخلاق وحكمة وأنه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك » ـــ وهو نفس الوصف الذي ذكره الخوانساري في « روضات الجنات »- كما وصفه كرد علي بأنه « عظيم الشرع ونابغة العقل » .

وقال فيه الزركلي في « **الأعلام** » : أديب من الحكماء العلماء .

وقال فيه كحالة في « معجم المؤلفين » : أديب ، لغوي ، حكيم ، مفسر .

وقال فيه جرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية » ٤٧/٣ ـــ : « كان فقيهاً عالماً في اللغة والأدب ، وله علم واسع ساعده في تأليف الكتب النافعة» .

وجاء في ترجمته المصدرة بكتاب « تفصيل النشأتين وتحقيق السعادتين »المطبوع في بيروت سنة ١٣١٩ بمناظرة الشيخ طاهر الجزائري صفحة ٢ :

وبالجملة فالإمام الراغب ممن أجمعت على فضله العلماء الأعلام على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم » . ونختم كلامنا في ترجمة الراغب بما ختم به محمد كرد علي حيث قال : « هذه نتفة من سيرة عظيم الشرع ونابغة العقل ، ولم نعرفه إلّا كما عرفنا أكثر العلماء ، مثّلوهم لأعيننا كباراً من أول يوم ، وما وقفوا على بيوتهم ونشأتهم ودراستهم وشيوخهم ومعاشهم وصفاتهم ، وما وقع لهم من الأحداث في حياتهم مما كانوا لا يرون فيه كبير أمر وممن لا نتصور الرجال إلا به » .

عقيدة الراغب الأصفهاني

لقد أوتي الراغب الأصفهاني عقلاً كبيراً ، وقدرة فائقة على الجمع بين الأقوال التي يبدو أنها متعارضة كما يظهر ذلك من خلال كتبه ومؤلفاته ، وكتابه هذا « جامع التفاسير » خير مثال لما نقول ، وقد جرى في تفسيره على نفس الأصول التي قررها في المقدمة ، وهو يحاول دائماً تصحيح كل قول باعتبارٍ يشهد له إن أمكن ، ولا يردُّه إلا إذا كان ظاهر الفساد واضح البطلان ، وقد وُفق الراغب في هذا النهج الذي سلكه توفيقاً كبيراً نتيجة لقدرته الفائقة على السبر والتقسيم وإدراك الدقائق والفروق ، ورد الجزئيات إلى كلياتها ، وعدم تعصبه لمذهب معين ، مما جعله صاحب شخصية مستقلة في الفهم يصعب إدراجه ضمن مذهب محدد من المذاهب الكلامية المعروفة وهذا ما دعا المترجمين له إلى الاختلاف في بيان عقيدته :

يقول السيوطي في كتابه « بغية الوعاة »[1] : « وقد كان في ظني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبدالسلام ما نصه : « ذكر الإمام فخر الدين الرازي في « تأسيس التقديس » — في الأصول — أن أباالقاسم الراغب من أئمة السُّنّة وقرنه بالغزالي ، وهي فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي » .

فالسيوطي رغم اطلاعه الواسع وقراءاته الكثيرة كان يظن أن الراغب معتزلي حتى وجد نصاً للزركشي يبين أنه من أهل السنة ويفرح لذلك ويعلّق عليه بقوله : « وهي فائدة حسنة فإن كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي » ومبعث هذا الظن هو ما قدّمناه من عدم التزامه بمذهب معيَّن

---

(١) بغية الوعاة : ٣٩٦

ومحاولته الجمع بين الأقوال باعتبارات متعدّدة ما أمكنه ذلك ، إلّا إذا كان الأمر لا يصح بأي اعتبار فإنه يردُّه ولا يقبله .

ويرى صاحب « روضات الجنات »[1] أنه أقرب لأن يكون أشعرياً وذلك حين يقول : « قيل : ويظهر أنه كان أشعريَّ الأصول »

ولا يمكن الجزم بذلك نظراً لعدم الالتزام الكامل كما قلنا بمذهب من المذاهب ، نعم قد يستفاد هذا من بعض المواقف أو بعض الأقوال ، لكن تعميم ذلك يحتاج إلى استقراء ، وذلك يصعب توافره نظراً لمنهج الراغب الذي يقوم على قبول الأقوال المتعددة باعتبارات مختلفة ، ولعلّ الذي ينفي أنه من المعتزلة ويُثْبت أنه من الأشاعرة يعتمد على مثل هذا القول الذي ذكره الراغب في كتابه « المفردات » حيث قال في معرض تفسيره لمادة « جبر » :

« .. فأما في وصفه تعالى نحو « العزيز الجبار المتكبر » : فقد قيل سُمِّي بذلك من قولهم: جبرتُ الفقير لأنه هو الذي يَجْبُرُ الناس بفائض نعمه .

وقيل : لأنه يَجْبُرُ الناس — أي : يقهرهم — على ما يريده . ودفَعَ بعض أهل اللغة ذلك من حيث اللفظ فقال : لا يقال من « أَفْعَلْتُ » : « فَعَّال » فـ « جبّار » لا يبنى من « أجبرت » فأجيب عنه بأن ذلك من لفظ « جَبَرَ » المرويّ في قوله : « لا جَبْرَ ولا تفويض » لا من لفظ « الإجبار » . وأنكر جماعة من المعتزلة ذلك من حيث المعنى فقالوا : يتعالى الله عن ذلك ، وليس ذلك بمنكر فإن الله تعالى قد أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية ، لا على ما تتوهمه الغواة الجهلة ، وذلك كإكراههم على المرض والموت والبعث ، وسخّر كلاً منهم لصناعةٍ يتعاطاها وطريقةٍ من الأخلاق والأعمال يتحراها ، وجعله مُجبراً في صورة مخيَّر فإمّا راضٍ بصنعته لا يريد عنها حِوَلاً ، وإما كاره لها يكابدها مع كراهيته لها لا يجد عنها بدلاً ، ولذلك قال تعالى : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ وقال عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ وعلى هذا الحدِّ وصف بالقاهر وهو لا يقهر إلّا على ما تقتضي الحكمة أن يقهر عليه » .

وواضح من هذا النص ردُّه على قول المعتزلة واستعماله لمصطلح الأشاعرة : « مجبر في صورة

(١) روضات الجنات : ٢٤٨

مخيّر » . وذلك كما قلنا لا يكفي دليلاً جازماً على أنه كان يلتزم مذهب الأشاعرة دائماً .

ولم ينحصر الخلاف بين المترجمين للراغب في كونه أشعرياً أو معتزليّاً ، بل إن بعض كُتّاب الشيعة ترجم له في طبقات أعلام الشيعة فقد قال آغا بزرك الطهراني في كتابه « طبقات أعلام الشيعة » : « اختلف في كونه شيعياً ، والعامّة صرّحوا بكونه من عامة المعتزلة ، وكذا بعض الخاصة ، لكن الشيخ حسن بن علي الطبرسي صاحب « كامل بهائي » صرح في آخر كتابه « أسرار الإمامة » أنه من حكماء الشيعة الإمامية » .

ويبدو أن الذين حاولوا نسبته إلى التشيُّع اعتمدوا في ذلك على بعض عباراته التي تجلّ الإمام علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ كأن يقول عنه دائماً « أمير المؤمنين » أو أن يقول أحياناً « عليه السلام » بدلاً من « رضي الله عنه » وقد صرّح بذلك الدكتور محمد أحمد خلف الله أثناء تعريفه بالراغب في مقدمة تحقيقه لكتاب المفردات حيث قال : « وكما يختلف الناس في تاريخ وفاته يختلفون في مذهبه الديني فهو سني عند البعض وشيعي عند البعض ومن المعتزلة عند الآخرين » إلى أن يقول : « ويبدو لي من احترامه الشديد للإمام علي ـــ كرم الله وجهه ـــ أنه كان من الشّيَعَة ويذكر الشيخ حسن بن علي الطبرسي أنه كان من حكماء الشيعة الإمامية » .

ولاشك أن هذا لا يصلح دليلاً يعتمد عليه في مثل هذا المجال وكما ذهب إلى ذلك صاحب « روضات الجنات » حيث قال : « .. وفي بعض الكتب أنه اختلف في تَشَيُّعِه ، وكأنه لما يتراءى من تقويته جانب الحق في بعض مصنفاته ، وأنت خبير بأن مثل ذلك لو كان دليلاً على حقيقة الرجل لما وجد للباطل بعد مصداق . كيف ولما يوجد بحمد الله لأشد النواصب إلى الآن مُصنَّف لـم يكن فيه شيء من مديح أهل البيت وشطر من مثالب مخالفيهم بالكتابة أو التصريح » ثم يقول بعد ذلك :

« وإذن فالمرجع في تشخيص المذهب الحق إلى الموافقة لأهله في جملة الضروريات والاقتفاء لآثارهم المحمودة في أصول المذهب وفروعه لا غير » . ويقصد بذلك أن الراغب لم يكن كذلك بالنسبة للشيعة فهو لا يوافقهم في أصل المذهب كما لا يوافقهم في فروعه ، وهذا من أوضح الواضحات . ثم يقول صاحب « روضات الجنات » عن الراغب : « نعم في كثرة روايته عن أهل البيت المعصومين ، وتعبيره عن سيدنا الإمام الهمام علي بن أبي طالب بأمير المؤمنين المطلق وعدم نقله عن سائر الخلفاء مهما استطاع هداية المتدرِّب الفطن إلى رشده وهدايته » .

فرجع الأمر كله إلى ما سبق أن أشرنا إليه من إجلال علي ـــ رضي الله عنه ـــ وتسميته بأمير المؤمنين . فأما عدم نقله عن سائر الخلفاء مهما استطاع ، فهذا كلام لا يصح لأنه ينقل عن سائر الخلفاء الراشدين ولا يفرق بين واحد وواحد ، كل ما هنالك أن الذي يتحكم في النقل طبيعة الموضوع وطبيعة المروي عن الخلفاء ودلالته بالنسبة لما يستشهد به عليه .

ورغم هذا الاختلاف المذهبي بين الشيعة من جانب والراغب الأصفهاني من جانب آخر فإنهم يقدرونه ويحترمونه لما سبق أن أشرنا إليه من بعض عباراته في تمجيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـــ بل ربما يستفيدون من كتبه اللغوية خاصة وكما يشير إلى ذلك صاحب « روضات الجنات » : « وكفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة وفيما تحقق له من اللغة خاصة » ـــ يريد بقوله : العامة والخاصة : السنة والشيعة .

وكما رجح صاحب « روضات الجنات » أنه أشعري الأصول كذلك رجح أنه كان من الشافعية في الفروع حيث يقول : « وكان من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته » .

ورغم أن الراغب سني غيرُ شيعي بيقين إلا أنه لا يمكن حصره في واحد من مذاهب أهل السنة والجماعة نظراً لِسَعَةِ إدراكِهِ وبُعْدِ نظراته ، وقدرته على استيعاب وجوه الخلاف وتصحيحه للأقوال المتباينة باعتبارات متعددة .

كتبه ومؤلفاته :

لقد ترك الراغب الأصفهاني من بعده عدداً كبيراً من الكتب والمؤلفات النافعة ، وهي تدل على مبلغ علمه وفضله ، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » :

« وكأن لسان الحال نادى مَنْ غَفَوا أو تغافلوا عن التّنويه به في كتبهم : إنكم ياهؤلاء إذا أهملتموني فالقدرة تعلقت بأن تناقل الناس كتبي وانتفعوا بها في مختلف الأعصار والأقطار وهل يستغني طالبُ الوقوفِ على أسرار التنزيل عن الأخذ من كتابه « المفردات في غريب القرآن » وقد شاع بين الناس باسم « مفردات الراغب » ؟ وهل تُسَد حاجة المتفقه بغير كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » إذا أراد الجمع بين أحكام الشرع ومكارمه علماً وعملاً ؟ وهل يتم أدب المتأدب إذا لم يأخذ من كتابه « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء » الذي أطلق عليه الناس

اسم « محاضرات الراغب » ــ تخفيفاً ــ فاقترن باسمه على الدهر ؟ وهل المتعلم في غنية عن مدارسة كتابه « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » ؟ .

ثم يقول محمد كرد علي : « الراغب لا يتكلم عن نفسه ، بل ينقل في العلم والأدب ــ اللهم إذا حكمنا عليه بما بقي لنا من ممتع تراثه هذا وهي الكتب الأربعة السابقة ــ كلامَ مَن تقدّمه ويضع الدساتير ويختط الخطط وقد امتاز بأن العقل يتجلّى في سطوره ، فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآي من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلاً على ما يريدون الإفاضة فيه .

ومن أعظم من طبقوا الحكمة ــ أي علم العقل على الشرع ــ كما امتاز بتنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها واقتصاره في تقريره على ما يجب أن يبقى في الذهن ولا تعافه النفس لطوله ولفه ودورانه يقول لك الراغب في المفردات : إن أول ما يحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه ، كتحصيل اللِّبِن في كونه من أوائل المعاوِن في بناء ما يريد أن يبنيه ، وليس ذلك نافعاً في علوم القرآن فقط ، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع ، فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته ، وواسطة كرائمه ، وعليها اعتماد العلماء والفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم » .

ويقول لك في « الذريعة » : « إنه باكتساب المكرمة يستحق الإنسان أن يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله تعالى : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ **ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ وبقوله تعالى ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ وان خلافة الله ــ عز وجل ــ لا تصحّ إلا بطهارة النفس ، كما أن أشرف العبادات لا تصح إلا بطهارة الجسم » . وكتاب « الذريعة » هذا قال فيه السيوطي في « بغية الوعاة » : قيل : إن الإمام حجة الإسلام الغزالي كان يستصحب كتاب « الذريعة » دائماً ويستحسنه لنفاسته . ويقول لك في « تفصيل النشأتين » :

« إن العقل لن يهتدي إلّا بالشرع ، والشرع لا يتبيَّن إلا بالعقل ، فالعقل كالأسّ ، والشرع كالبناء ، ولن يغني أُسٌّ ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أُسّ ، وأيضاً فالعقل كالبصر

والشرع كالشعاع ، ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن يغني الشعاع مالم يكن بصر ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه** » وأيضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت ، قال الله تعالى : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾ والله هو الهادي .

وأيضاً فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان ، ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : ﴿ **صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ ، فسمّى العقل ديناً ، ولكونهما متحدين قال : « نور على نور » أي : نور الشرع ونور العقل ، ثم قال : ﴿ **يهدي الله لنوره من يشاء** ﴾ فجعلهما نوراً واحداً ، فالشرع إذا فَقَدَ **العقلَ** عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد الشعاع » .

وهكذا يمضي محمد كرد علي في حديثه عن كتب الراغب فيتكلم عن كتابه « محاضرات الأدباء » وما يمتاز به والفوائد التي تتحصل لقارئه . غير أن حديث كرد علي عن كتب الراغب محصور في ما طبع منها ، واستكمالاً للحديث عن كتبه نرى أنه لا مندوحة لنا من التعريف بكتبه المخطوطة التي وقفنا على خبرها ، ومنها :

١ ــ « تحقيق البيان »[1] وقد ذكره الأستاذ أسعد طلس في مقاله « نفائس المخطوطات العربية في المشهد الرضوي المطهر » المنشور في مجلة المجمع العلمي العربي ٢٤/٢٧٥ وقال الأستاذ طلس : ولم أر من أشار إلى هذا الكتاب فيمن ترجمه . والكتاب فريد وجدُّ نفيس في موضوعه ، فيه أمور في اللغة العربية والأخلاق والحكمة ، ولكن أوله مخروم ، يبدأ هكذا « .. في صوره المختلفة وذلك ظاهر من خبر جبرائيل وإتيانه النبي ــ ﷺ ــ تارة .. » وآخره : « .. ذكر الطريق المتوصَّل

(١) ورد في روضات الجنات/٢٤٨/ باسم « تحقيق البيان في تأويل القرآن » والظاهر أنه خطأ . وكذلك ورد في « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » لآغا بزرك الطهراني /٥/٤٥ - ٤٦ .

بها إلى المعارف . المعارف ضربان » .. وعدد أوراق المخطوط : ١٦٩ ورقمه (٥٦) أدبيات .

٢ ــ أفانين البلاغة : وقد سماه الراغب في مقدمته « جماع البلاغة » كما في إحدى النسخ الخطية و « مجمع البلاغة » في إحدى النسخ الأخرى وقد جاء في مقدمته :

« الحمد لله طاقَةَ العباد وسَعَةَ البلاد حمد العارف بفضل العوارف . وصلّى الله على مَن هدانا ببيانه ، وأنزل كتابه على لسانه وعلى الأصفياء من عترته ، والأخيار من زمرته .

قال أبو القاسم الراغب : اعلم أن الأدَب لا يتنكَّرُ على الجملة فضلُه ، ولا يستتر عند المحصِّلَة نبله ، وإن كان في وقتنا هذا قد تقضَّت مواسمه ، وطُمِسَت عند العامة معالمه ، وصار بنوه طُرّاً في هوان بمَسقِط ذلك الشّعْبِ القَصيّ تدوسهم الأنعامُ بأخفافها ، وتطؤهم الأغنام بأظلافها ، إلّا من أمدَّه الله بعفافٍ وكفاف ، فمنعه عفافُه عن دِقاق لئيم المطامع ، ودفعه كفافه عن وخيم المطاعم ، فصان العلوم بخلقه وصانته ، وزانها بنزاهته وزانته ، فمن لا يكرِّم نفسَه لا يكرم :

ولو أن أهل العِلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لَعُظِّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنَّسوا ... محيَّاه بالأطماع حتى تجهَّما

ورحم الله أبا عبيدة حيث يقول : من أراد أن يأكل الخبز بالعِلم فلتبك عليه البواكي زهدنا الله في فضول المال المورث للوبال ، وجعلنا ممن يطلب العلم رعاية لا رِواية ، ومِمّن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمله ، فقد قال النبي ــ ﷺ ــ : « من ازداد في العلم رشداً ، ولم يزدد في الدنيا زهداً ، لم يزدد من الله إلّا بعداً » .

ولما رأيتك ــ حرس الله جميل الفضل بك ــ مائلاً إلى الألفاظ المونقة ، والمعاني الغضَّة المورقة ، والبدائع من الكَلِم التي تقصر عن درجة المتعمق المتكلِّف ، وتتجاوز مرتبة الغبي المسفسف ، تتبعت نوادر الأشعار وغررها ، فما عثرت عليه من واسطة فِقَرٍ انتخبتها ، وما انتهيت إليه من أعلام جَيِّر اقتنصتها وجمعتها ، وما وجدته في كلام البلغاء من لفظ يُعَدُّ في السحر الحلال والعذب الزلال ضممته إليه فعملت من ذلك كتاباً مُبَوَّباً سميته « مجمع البلاغة » ، ومتى عنَّ بيت يزول حسنه إذا قطع سلكه ذكرته قرب فقرة لا يروق منظرها إلّا منظومة ، وربما انتهيت إلى نكتة واردة في معنى ما ، فإذا اختلست في أثناء الكلام كانت بغير ما وردت أليق إما حقيقة وإما استعارة فنقلته إليها ، فلا يظنّ الناظر فيه أن ذلك من جهل بموقعه ، وليتأمله بعين الإنصاف . وليس هذا الكتاب إلّا لمن تجاوز المنزلة الدنيا في البلاغة وعرف الاستعارات وانواع المحاورات ،

والرجاء أن مَن ينظر فيه منصفاً عرف لمصنفه تأثيراً بيِّنا ، نعوذ بالله ممن عقلُه صديق مقطوع ، وهواه عدو متبوع ، ونسأله أن يعصمنا من الزَّلَل ، ويُوَفقنا لصالح العمل بلطفه ومَنِّه إنه جواد كريم » .

٣ ــ دُرَّة التأويل وغُرَّة التنزيل :

وهو في المتحف البريطاني برقم/٥٧٨٤/٥٣/ كما ذكره بروكلمان في تاريخ الأدب العربي وقال فيه : وهو عن الآيات المكررة في مواضع كثيرة من القرآن بألفاظ مختلفة .

وقد ورد في بعض المصادر باسم « حل متشابهات القرآن » ويوجد منه نسخة خطية بهذا الاسم في راغب باشا في تركية وهو في/١٨٠ ورقة وكل صفحة ٢٣ سطراً . ويبدو أن هذا الكتاب هو نفس الكتاب المطبوع « درّة التأويل وغرّة التنزيل » والمنسوب إلى الخطيب الإسكافي ، وقد سمعت بأن مقالاً نشر في مجلة مجمع اللغة العربية في عمان يؤكد صحة نسبة الكتاب المذكور للراغب الأصفهاني وينفي أن يكون للخطيب الإسكافي ولكني لم أطَّلِع عليه .

٤ ــ رسالة منبهة على فوائد القرآن :

وقد ذكرها بروكلمان ، وقال بأن الراغب أشار إليها في أول كتاب « مفردات القرآن » حيث قال في مقدمة كتاب « المفردات » : وأحيل بالقوانين الدّالة على تحقيق مناسبات الألفاظ على الرسالة التي عملتها مختصة بهذا الباب ، ففي اعتماد ما حررته من هذا النحو استغناء في بابه من المثبطات عن المسارعة في سبيل الخيرات ، وعن المسابقة إلى ما حثنا عليه بقوله تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم** ﴾ سهّل الله علينا الطريق إليها .

٥ ــ تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد :

وقد أشار إليه في مقدمة « المفردات » حينما قال : « وأُتبعُ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ونَسَأً في الأجل بكتاب ينبيء عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته ، نحو ذكره « القلب » مرة . و « الفؤاد » مرَّةً و « الصدر » مرةً ، ونحو ذكره تعالى في عقب قصة : ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وفي أخرى ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ وفي أخرى ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ وفي أخرى ﴿ **لقوم يفقهون** ﴾ وفي أخرى ﴿ **لأولي الأبصار** ﴾ وفي أخرى

﴿ لذي حجر ﴾ وفي أخرى ﴿ لأولي النهى ﴾ ونحو ذلك مما يَعدُّه من لا يحق الحق ويبطلُ الباطل أنه باب واحد ، فيُقدّر أنه إذا فسّر « الحمد لله » بقوله : **الشكر لله** ، و «لا ريب فيه » بـ : لا شك فيه ، فقد فسر القرآن ووفاه البَيان » .

ولا نعلم إذا كان هذا الكتاب قد كتب له أن يرى النور أو لم يكتب ، ويبدو أنه لا وجود له فيما وصلنا من علم عن كتب الراغب حتى الآن .

٦ ــ كتاب الأخلاق ــ ذكره بروكلمان ــ ومنه نسخة خطية في برلين تحت رقم/٥٣٢٩ .

٧ ــ كتاب « الإيمان والكفر » ذكره صاحب الروضات وقال فيه : « بديع الطرز حسن الفوائد ، قيل ويظهر منه أنه كان أشعري الأصول .

٨ ــ جامع التفاسير :

وقد قال فيه السيوطي في « بغية الوعاة » : هو تفسير معتبر .. أورد في أوله مقدمات نافعة في التفسير ، وطِرزُه ــ أسلوبه ــ أنه أورد جملاً من الآيات ثم فسّرها تفسيراً مشبعاً ، وهو أحد مآخذ أنوار التنزيل للبيضاوي ، غير أن بعضهم جعل مفردات الراغب أحد مآخذ القاضي البيضاوي في تفسيره ، ولا تنافي بين القولين .

وقال فيه الفيروز أبادي في « البلغة/٦٩ » : التفسير الكبير ــ في عشرة أسفار ــ غاية في التحقيق .

ويوجد من هذا التفسير النسخ الخطية التالية فيما وصل إلينا علمه :

ــ ٩٨ ــ الجزء الأول منه يبتديء بالبسملة وأضيفت له مقدمة في علم التفسير صورت عن رقم (٩٦ فيض الله) لإكمال هذا الجزء ، وينتهي بآخر المائدة ، وبآخره نقص وقد كتب في القرن السادس ــ ولي الدين جار الله ٣٩٥٠٨٤ ق . ١٩ × ٣٠ سم .

ــ ٩٩ ــ الجزء الثاني منه ، تبتديء هذه الجملة منه بتفسير أول سورة يوسف إلى آخر سورة الأحزاب وقد كتب في القرن الثامن بخط مقروء ــ ولي الدين جار الله ٢٣٣٠٨٦ ق . ٢٢ × ٣٠ سم .

ــ ومنه جزء في أيا صوفيا تحت رقم ٢١٢ ذكره بروكلمان .

ــ ومنه مصورة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد في ٢٢٤ ورقة حجم ١٩ × ١٠ سم ت ص :

٤٤ فلم ٦٢ رقم ٣٦٦ ــ معهد الدراسات الإسلامية العليا ــ جامعة بغداد .

ــ قطعة منه تشتمل على تفسير الآيات من أول سورة « المؤمنون » أولها : سورة المؤمنون وهي مكية في قول الجميع ، وهي مائة وتسع عشرة آية وألف وثمان مائة وأربعون كلمة ، وآخرها « بإظهار ندامته » يعني : ان القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم « كذا » وقولهم : « ياليت لنا مثل هذا » .

- نسخة حسنة بخط نسخي دقيق ترق إلى القرن الثاني عشر ، في أولها تمليك للسيد عبدالله الأمين ، ووقفية على المدرسة الخاتونية ببغداد سنة ١٢١٥ هـ ــ هكذا جاء في الآثار الخطية للمكتبة القادرية ببغداد : ٨٦/١ ــ عبدالسلام رؤوف .

ــ مقدمة التفسير ــ فهرس التيمورية : ١٣٢٥/١ خط وتحت رقم (٣٦١) .

ــ النكات القرآنية ــ طو بقبو سراي تحت رقم 9009 E. H 1616 في ٦٧ ورقة كل صفحة ١٩ سطراً اللوحة الأولى مذهبة وبعض الكلمات بالحمرة مسطرتها : ٢٠ $\frac{١}{٢}$ × ١٣ سم وهي عبارة عن مقدمة التفسير وتفسير سورة الفاتحة ومطالع سورة البقرة إلى قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ــ وهي النسخة التي اعتمدنا عليها في التحقيق ــ وبانتهاء الكلام في مؤلفات الراغب نكون قد أتينا على نهاية هذه المقدمة التعريفية والتي نرجو الله تعالى أن تكون مدخلاً نافعاً لدراسة هذه الفصول في أصول التفسير وتطبيقاتها العملية في تفسير سورة الفاتحة ومطالع سورة البقرة ، جعل الله عملنا خالصاً لوجهه ، وسدّدنا لما فيه رضاه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدكتور أحمد حسن فرحات
جامعة الكويت ــ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه، وصلى الله على النبي محمد وآله وأنبيائه، ونسأله أن يحبونا ممن ابتداه بفضله وانعمه وأعقبه رأفته ورحمته، وأن يجعلنا ممن سبقت عليه نعمة الاجتباء، وحسّن قلوبهم لقبول التقى، إنه لطيف لما يشاء. قال الشيخ أبو القاسم الراغب المفضل في هذا الإملاء: إن نفّس الله في العمر ووقانا من نوب الدهر، وهو المرجو أن يشغلنا بالأمرين أن نبين من تفسير القرآن وتأويله نكتاً بارعة تنطوي على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم من السلف المتقدمين رحمهم الله بجملة ونبين من ذلك ما ينبئ عن السر ويشهد به العقل. وفقنا الله لمرضاته برحمته، وجعل سعينا مشكوراً ونجعلنا في الدارين محمودين. والكتب بحسب مبتدأ التوفيق ومنتهاه فمهدنا ما لا بد من بيانها في مبتدأ الكتاب.

فصل في بيان ما يقع فيه الاشتباه من الكلام المفرد والمركب. الكلام ضربان: مفرد ومركب. فالمفرد المسمى بالاسم والفعل والحرف، وذلك بالوضع الاصطلاحي يسمى ذلك، فأما بالوضع الأول فكله يسمى أسماء، ولكن صار لكل أقسامه، فإن الكلام إما أن يكون مخبراً عنه وهو الملقب بالاسم، وإما خبراً وهو الملقب بالفعل، وإما رابطاً بينهما وهو الملقب بالحرف، وهو القسمة لا يقتضي غير ذلك، وما كان من الخبر نحو فاعل ومفعول فالنحويون يسمونه أسماء اعتباراً بأخذه لفظاً لأنه يلحقه ما يدخل الأسماء من التنوين والجر وحرفي الألف واللام والتصغير ونحو ذلك وإن ليس هو الفعل الدائم. أما الفعل فاعتباراً بالمعنى وهو

الورقة الأولى من النسخة الخطية «ت»

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وكقوله
أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان وهم المزيد لهم
بقوله ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا. قوله تعالى
سابع قوله تعالى أولئك على هدى من ربهم إلى الصنف
الأول وأولئك هم المفلحون إلى الصنف الثاني قوله عز وجل
أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.
قد تقدم القول في ذكر الهداية بما أغنى عن الإعادة
فأما الفلاح فأصل الفلح الشق ومنه قيل الحديد بالحديد
يفلح وسمي الأكار [illegible] وهو
يشق الأرض ومن قال سمي المكاري فلاحا فالقول
[illegible] وفلاح يسوق لها حمارا فهذا سوء نظر منه
فإنه أراد أكارا يسوق حمارا ألا ترى أنه لو قال أكارا
يسوق حمارا لم يمكن أن يقال إن الأكار هو المكاري
كذلك هذا وسمي الظفر فلاحا اعتبارا بالشق لكونه
ثم الفلاح تارة يعتبر بأغراض الدنيا فيقال أفلح فلان
إذا ظفر بما يريد منها وقول من قال الفلاح البقاء لقول
[illegible] نرجو الفلاح بعد عاد وحمير فإنما يعني الخلو
[illegible] بعض الغرض فإن ذلك عام موضوع موضع
خاص وقد استعمل الفلاح في الآية لما هو الحقيقة

نفع ودفع كما قال عليه السلام لا عيش إلا عيش الآخرة
وقوله تعالى. وإن الدار الآخرة
لهي الحيوان
تمم

أن لا يكون فساداً . كذلك الحراث والمحترف فالفعل في ذلك اذا كان يطلب بدعاء

والدعاء . ويجب للداعي أن

كذا وجب أيضاً أن يعرف نفس الشيء

(بياض بالاصل) تعالى هو محال أو

الخلق بالقرآن

ويليه ما ثبت في السنة

قال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا) مدحهم فانه تعالى على تفكرهم فبين أنه ينبغي أن ينظروا ليعلموا أنه تعالى ما خلق ذلك باطلا ليصح منهم هذا القول وليصح منهم أن يقولوا سبحانك فقنا عذاب النار لان ذلك تنزيه به عما لا يليق به فيجب أن تتقدم المعرفة في ذلك . وانما عظم شأن القرآن لا لانه يتلى ويحفظ فرب صبي لم يبلغ حد كمال العقل يسابق الكبار من العقلاء في حفظه وانما عظم ذلك من حيث اذا تدبره المرء وتمسك بآدابه وأحكامه عظم نفعه ديناً ودنيا . وقد ذكرنا في هذا الكتاب والحمد لله على نعمه ما ينبه من نظر فيه على عظم شأن القرآن من أدلة على معرفته وعلى معرفة عدله ومن ضروب من التنبيه على ما أودعه من وعظ وتذكير وانذار وتبشير ووعد ووعيد وذكرنا أيضاً على وجه الاختصار ما يعرف به عظيم الغلط ممن طعن في القرآن بذكر الشبه

ما ظن أنه بخلاف الحكم

(بياض بالاصل) أن يدعوا (بياض بالاصل)

ثبت قول وعمل

مقدمة التفسير

« للعلامة الشهير »

أبي القاسم الراغب الاصفهاني

رحمه الله تعالى

آمين

(طبعت على نفقة راجي عفو ربه الكريم)



صاحب المكتبة الأزهرية

(الطبعة الاولى سنة ١٣٢٩)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

صفحة عنوان النسخة المطبوعة « ع »

من الكلام والثالثة أن يضم بعض ذلك الى بعض ضما لمبادي، ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال له المنظوم والرابعة أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له السجع والخامسة أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ويقال له الشعر وقد انتهى وبالحق صار كذلك فان الكلام إما منثور فقط أو مع النثر نظم أو مع النظم سجع أو مع السجع وزن والمنظوم اما محاورة ويقال لها الخطابة وإما مكاتبة ويقال لها الرسالة وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة ولكل من ذلك نظم مخصوص والقرآن حاو لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لا يصح أن يقال القرآن رسالة أو خطابة أو شعر كما يصح أن يقال هو كلام ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم ولهذا قال تعالى (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) تنبيها على أن تأليفه ليس هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الاخر فان قيل ولم لم يتبع نظم القرآن الوزن الذي هو الشعر وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون اذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزونا قيل انما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية في الشعر منافية للحكمة الالهية فان القرآن هو مقر الصدق ومعدن الحق وقصوى الشاعر تصوير الباطل في صورة الحق وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحري الصدق حتي ان الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق الا بالعرض ولهذا يقال من كانت قوته الخيالية فيه اكثر كان على قرض الشعر أقدر ومن كانت قوته العاقلة فيه اكثر كان في قرضه أقصر ولاجل كون الشعر مقر الكذب نزه الله نبيه عليه الصلاة والسلام عنه لما كان مرشحا لصدق المقال وواسطة بين الله وبين العباد فقال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) نفى ابتغاءه له وقال تعالى (وماهو بقول شاعر) أي ليس بقول كاذب ولم يعن

أن ذلك ليس بشعر فان وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج الى أن ينفي عنه ولاجل شهرة الشعر بالكذب سمي أصحاب البراهين الاقيسة المؤدية في اكثر الامر إلى البطلان والكذب شعرية وما وقع في القرآن من الالفاظ متزنة فذلك بحسب مايقع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه وأما الاعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً اذا اعتبر وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الافعال محمودة كانت أو مذمومة إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقية الهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف لينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها بانساع قلب ويتعاطاها بانشراح صدر وقد تضمن ذلك قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) فلما رؤي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن وعجزهم عن الاتيان بمثله وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب ان صارفا الهيا يصرفهم عن ذلك وأي اعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه ومجبرة في الباطن عن ذلك وما أليقهم بانشاد ماقال أبو تمام .

فان نك أهملنا فاضعف بسعينا • وان نك أجبرنا فنم تتبع

والله ولي التوفيق

٣ طورة ملك ذي المطبوعة « ع »

بســـــم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه ، وصلى الله على النبي [محمد][1] وأوليائه ، ونسأله أن يجعلنا مِمَّن ابتدأه بفضله ونعمته ، وأعقبه برأفته ورحمته ، وأن يجعلنا ممن أسبل عليه نور عصمة الأنبياء ، وحَصَّن قلوبهم بطهارة النقاء ، إنه لطيف لما يشاء .

قال الشيخ أبو القاسم الراغب ــ رحمه الله تعالى :

القصد في هذا الإملاء ــ إن نَفَسَ الله في العمر ووقانا من نُوَب الدهر ، وهو مرجو أن يُسْعِفنا بالأمرين ــ أن نبيِّنَ من تفسير القرآن وتأويله نكتاً بارعة تنطوي على تفصيل ما أشار إليه أعيان الصحابة والتابعين ومَن دونهم من السلف المتقدمين ــ رحمهم الله ــ [إشارة][2] مجملة ، ونبيِّن من ذلك ما ينكشف عنه السِّر ويثلج به الصدر .

وفقنا الله لمرضاته برحمته ، وجعل سعينا مسعوداً ، وفِعْلَنا في الدارين محموداً ، فمنه يُسْتَجْلَبُ (مبتدأ)[3] التوفيق ومنتهاه .

---

(١) سقطت الكلمة من « ع »
(٢) زيادة لابد منها ليستقيم الكلام .
(٣) في « ع » : مبدأ .

فصـــول لابد من بيانها في مبدأ[1] الكتاب

فصل في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام[2] المفرد والمركب :

الكلام ضربان : مفرد ومركب :

فالمفرد : المسمّى بالاسم والفعل والحرف ، وذلك بالوضع الاصطلاحي سمّي بذلك .

فأمّا بالوضع الأوّل[3] ، فكله يسمّى اسماً .

وبحق[4] صار ثلاثة أقسام :

ــ فإن الكلام إما أن يكون مخبراً عنه ، وهو الملقب بالاسم .

ــ وإما خبراً ، وهو الملقب بالفعل .

ــ وإما رابطاً بينهما ، وهو الملقب بالحرف .

ــ والقسمة لا تقتضي[5] غير ذلك .

وما كان من الخبر نحو « فاعل » و « مفعل » :

والبصريون يسمّونه اسماً اعتباراً بأحكام لفظية[6] ، لأنه يدخله ما يدخل الأسماء من التنوين

---

(١) في « ع » : مبدأ .

(٢) في « ع » : الكلا .

(٣) يريد بالوضع الأوّل ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ ولذلك قال الراغب في مفرداته : « وعلم آدم الأسماء » : أي : الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها . وبيان ذلك أن « الاسم » يستعمل على ضربين : أحدهما : بحسب الوضع الاصطلاحي ، وذلك هو في المخْبَر عنه نحو « رجل » و « فرس » والثاني : بحسب الوضع الأولي ، ويقال ذلك للأنواع الثلاثة : المخْبَر عنه ، والخَبَر عنه ، والرابط بينهما المسمى بالحرف ، وهذا هو المراد بالآية ، لأن آدم عليه السلام كما علم « الاسم » علم الفعل والحرف » ..

(٤) في « ع » : وبحق أن وفي « د » : ويحق أن

(٥) في « ت » يقتضي وانظر « أقسام الكلام » في « الصاحبي » لابن فارس : ٨٢ ــ ٨٦

(٦) في « ت » : لفظه .

والجر ، [وحروفه والالف][1] واللام ويخبر عنه .

والكوفيون يسمّونه « الفعل الدائم » . أما « الفعل » : فاعتباراً بالمعنى ، وهو أن « قائماً » فيه معنى « يقوم » وأما « الدائم » : فلأنه يصلح للأزمنة الثلاثة ، وإن كان الحال أولى به في أكثر المواضع .

والأصل في الألفاظ : أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني ، لكن ذلك لم يكن في الإمكان إذ[2] كانت المعاني بلا نهاية ، والألفاظ مع اختلاف تراكيبها[3] ذات نهاية ، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي . فلم يكن بد من وقوع اشتراك في الألفاظ .

ويجب أن يعلم أن للفظ مع المعنى خمس أحوال :

الأول : أن يتفقا في اللفظ والمعنى ، فيسمى : « اللفظ المتواطيء » نحو « الإنسان » إذا استعمل في « زيد » و « عمرو » .

الثاني[4] : أن يختلفا في اللفظ والمعنى ، ويسمّى : **« المتباين »** نحو « رجل » و « فرس » .

الثالث : ان يتفقا في المعنى [من][5] دون اللفظ ، ويسمّى : « المترادف » نحو « الحسام » و « الصمصام » .

الرابع : ان يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى ، ويسمى : « المشترك » [والمتفق][6] نحو « العين » المستعملة في « الجارحة » و « منبع الماء » و « الدَّيْدَبان »[7] وغير ذلك .

---

(١) في « ت » : وحروف الألف

(٢) في « ت » : إذا .

(٣) في « ع » : تركيبها .

(٤) في « ع » : والثاني .

(٥) زيادة من « ت » .

(٦) زيادة من « ع » .

(٧) قال صاحب لسان العرب : « والدَّيْدَبان : الطليعة . وهو الشَّيفة . قال أبو منصور : أصله دِيذَبان . فغيروا الحركة ، وقالوا : دَيْدبان لما أعرب » ، وقد علق على ذلك محقق لسان العرب قائلاً : « قوله : أصله ديذبان فغيروا الحركة الخ .. هكذا في نسخة الأصل والتهذيب بأيدينا ــ وفي « التكملة » : قال الأزهري :

والخامس : أن يتفقا في بعض [اللفظ][1] وبعض المعنى ويسمّى « المشتق » نحو « ضارب » و « ضرب » .

والذي يقع فيه الاشتباه من هذه الخمسة :

ـــ « الألفاظ المشتركة » و « الألفاظ المتواطئة » : هل هي عامة أو خاصة ؟

ـــ و « المشتقة » مِمَّ اشتق ؟ كقولهم « النبي » و « البرية » :

منهم من قال : « أنبأ » و « برأ » ، فَتُرِكَ[2] الهمز .

ومنهم من قال: « مِنَ النُّبْوَة »[3] ـــ وهي الربوة ـــ ومن « البرى »[4] وهو : التراب .

الدَّيْدبان : الطليعة ـــ فارسي معرب ـــ وأصله : ديذبان ، فلما أعرب غيرت الحركة ، وجعلت الذال دالاً » . وقد ذكره السيوطي أيضاً في كتابه « المزهر » ضمن الألفاظ المشتركة التي تدل عليها كلمة « عين » .

(١) ساقط من « ع » .

(٢) في « ع » : فتركت وقد قال الراغب في المفردات : « النبيُّ ـــ بغير همز ـــ فقد قال النحويون : أصله الهمز فَتُرِكَ همزه واستدلّوا بقولهم : « مسيلمة نبيُّ سَوْءٍ » . وقال ايضا : والبريّة : الخلق ، قيل : أصله الهمز فتُرِك » .

(٣) وقال الراغب في المفردات : وقال بعض العلماء هو من النَّبْوَة ، أي : الرفعة ، وسمي نبيّاً لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله : « ورفعناه مكاناً علياً » .

(٤) قال الراغب في المفردات : وقيل : ذلك من « بَرَيْت العود » وسميت بريّة لكونها مَبْرِيَّةً عن البرى أي : التراب بدلالة قوله تعالى : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ اولئك هم خير البرية ﴾ وقال : « شر البريّة » .

فصل في أوصاف اللفظ المشترك :

اللفظ إنما يحصل فيه التشارك بأن يستوي اللفظان في ترتيب الحروف وعددها وحركاتها ويختلفا[1] في المعنى نحو : « عين »[2] و « كلب »[3] .

فأما إذا اختلف ترتيب الحروف نحو « حلم » و « حمل » أو العدد نحو « الغناء »[4] و « الغنّاء »[5] و « قدر » و « قدّر » أو الحركة نحو « قَدِمَ » و « قَدُمَ » ، أو لم يختلفا في المعنى نحو « الإنسان » إذا استُعْمِلَ في « زيد » و « عمرو » فليس شيء من ذلك[6] من الأسماء المشتركة ، فإن الذي اختلف في العدد ربما كان من المشترك نحو « ضارب » و « ضرب » وربما كان من المتباينة نحو « القنا » و « القنابل »[7] وربما كانت **الكلمة صورتها** صورة المشترك في اللفظ وتكون[8] من المشتقة لاختلاف تقديرها[9] نحو « المختار » إذا كان فاعلاً

---

(١) في « ت » : ويختلفان . وهو خطأ من الناسخ .

(٢) قال الراغب في مفرداته : العين الجارحة .... ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة ، بنظرات مختلفة ، واستعير للثقب في المزادة تشبيهاً بها في الهيئة وفي سيلان الماء منها ، فاشتق منها « سِقاء عَيِّن » و « معين » إذا سال منها الماء .. وقيل للمتجسس : عَيْن ، تشبيهاً بها في نظرها ... وقيل للذهب : عَيْنٌ ، تشبيهاً بها في كونها أفضل الجواهر ، كما أن هذه الجارحة أفضل الجوارح ، ومنه قيل : أعيان القوم — لأفاضلهم — وأعيانُ الأخوة — لبني أب وأم — قال بعضهم : العين — إذا استعمل في معنى ذات الشيء — فيقال : كل ما له عَيْن ، فكاستعمال « الرقبه » في المماليك ... ، ويقال لمنبع الماء : عين ، تشبيهاً بها لما فيها من الماء ..» وانظر « المزهر » للسيوطي : ٣٧٢/١ — ٣٧٥ .

(٣) قال الراغب في مفرداته : الكلب : الحيوان النّباح ... والكَلْبُ : المسمار في قائم السيف .. والْكَلْبُ : نجم في السماء مشبَّه بالْكَلْب لكونه تابعاً لنجم يقال له : الراعي » .

(٤) و (٥) في « ع » : « القنا » و « القنا » وهو تصحيف ، لأن المراد : اختلاف عدد الحروف ، والعدد في الكلمتين لا يختلف إلا بتشديد أحد الحروف ، ومن ثم رجحنا أن تكون الثانية مشددة وهي كذلك في « ت » . (٦) في « ت » : في

(٧) قال صاحب اللسان : القَنْبَلةُ والْقَنْبَل : طائفة من الناس ومن الخيل ، قيل هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين ونحوه . وقيل : هم جماعة الناس . قنبلة من الخيل ، وقنبلة من الناس : طائفة منهم ، والجمع : القنابل .... ورجل قُنْبُل وقُنابِل :غليظ شديد والقُنابل : العظيم الرأس .... والقُنابل : حمار معروف .... »

(٨) في « ت » : ويكون . (٩) في « ت » : تقديرهما .

فإن تقديره : « مُفتَعِل » وإذا كان مفعولاً فإن تقديره : « مُفْتَعَل » ، وكذا فلان مُنْحل ، وأمر مُنْحَل فيه . و « الفُلْك » إذا كان واحداً كـ « قُفْل » ، وإذا كان جمعاً فإنه كـ « وُثْن »(١٠) . وناقة « هِجَان » وامرأة « ضِنَاك »(١١) فإنها كـ « حمار » ، (١٢) ونوق « هِجان » كقوم « كرام » وعلى ذلك : هم « يغزون » نحو : « يَخرِجُون » . وهنّ « يغزون » نحو « يَخْرُجْنَ » وأنت « تَغْصين » نحو « تَشْتُمين » وأنتن « تَغْصين » نحو « تَشْتُمْنَ » ونحو « دَبْر » مصدر « دبر » وجمع « الدابر » ، نحو « رَكْب » .

وكثيراً ما يلتقي فرعان [بوضعنا](١٣) للفظين متفقين في الصيغة وهما مختلفان في المعنى نحو « المصباح » لما يشرب منه الصبوح ، ولما يشتق من « صبحت »(١٤) أي : اسرجت ، وأشتكي لاظهار الشكوى ، ولاتخاذ شَكْوَة(١٥) اللبن .

---

(١٠) في « ع » ك « وُثْن » وفي « ت » : ك « برثن » وهو تصحيف . و « وُثْن » : جمع « وَثَن » مثل « أُسْد » جمع « أَسَد » وقد جاء في مفردات الراغب : « الفلك » : السفينة ، ويستعمل ذلك للواحد والجمع ، وتقديراهما مختلفان ، فإن « الفُلْك » إن كان واحداً كان كبناء « قُفْل » وإن كان جمعاً فكبناء « حُمْر » و « حمر » كبناء « وُثْن » .

(١١) في « ت » : ضِنال . وهو تصحيف واضح . والضِّناك : الضخمة .

(١٢) يريد بذلك أن بناء « هِجان » و « ضِناك » ك « حمار » أي : وزان « فِعال » واختار « حمار » لأنه مفرد ولم يقل « فِعال » ، لأنه يكون مفرداً وجمعاً كما قال بعد ذلك : « نوق هِجان » كقوم كرام ، يريد بذلك : أن وِزان « هِجان » ــ إذا كانت جمعاً ــ بمعنى « كرام » التي هي وِزان « فِعال » للجمع والهجان من الابل : البيضاء الخالصة اللون والعتق . ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع ، يقال : بعير هِجان ، وناقة هِجان ، ونوق هِجان .

(١٣) ساقطة من « ع » .

(١٤) في « ت » أسرحت . وهو تصحيف وقد قال الراغب في مفرداته : « .. والمصباح : ما يسقى منه . ومن الإبل : ما يَبْرُكُ فلا ينهض حتى يصبح . وما يجعل فيه المصباح ، قال : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة » ، ويقال للسراج : مِصباح . والصَباح نفس السِّراج ، والمصابيح : أعلام الكواكب .. » .

(١٥) قال الراغب في مفرداته : الشكْوُ ، والشِّكاية ، والشَّكاة ، والشكْوى : إظهار البث .. وأصل الشَّكْو : فتح الشَّكْوَة وإظهار ما فيه ، وهي سقاء صغير يُجْعَل فيه الماء ، وكأنه في الأصل استعارة كقولهم : بثثت له ما في وعائي ، ونفضت ما في جرابي إذا أظهرت ما في قلبك » .

فصل : الاشتراك في اللفظ [يقع][1] لأحد وجوه :

ــ إما أن يكون في لغتين نحو « الصَّقْر » لِلَّبَن إذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب[2] .
و« الصَّقْر » للدبس في لغة أكثر أهل المدينة[3] .

ــ وإما أن يكون أحدهما منقولاً عن الآخر أو مستعاراً . والفرق بينهما :

إن المنقول : هو الذي ينقله أهل صناعة ما عن المعنى المصطلح عليه أولاً إلى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته فيبقى من بعد مشتركاً بين المعنيين وعلى[4] ذلك الألفاظ الشرعية نحو الصلاة والزكاة والألفاظ[5] الت ستعملها الفقهاء والمتكلمون والنحويون .

ـسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر ، له اسم وضعي غيره ، فتستعمله ين المعنيين ، كتسمية الشجاع بالأسد ، والبليد بالحمار .

نقول والمستعار : أن المنقول شرطه أن يتبع فيه أهل تلك الصناعة والمستعار ير[7] فيستعمله[8] إذا قصد معنى صحيحاً ويكون[9] متضمناً لمعنى التشبيه ،

ت »

لسان : « والصقر : اللبن الشديد الحموضة ... قال الأصمعي : إذا بلغ اللّبن من ه شيء ، فهو « الصَّقْر » وقال شمر : الصَّقْر : الحامض الذي ضربته الشمس

: « والصَّقْر » و « الصَّقَر » : ما تحلّب من العنب والزبيب والتمر من غير أن يعصر ، المدينة به : دِبْس التمر . وقيل : هو ما يسيل من الرُطَب إذا يبس . والصَّقْر : الدِّبْس

ں .

و الألفاظ

احد .

ستعين . ولعله تصحيف « يستعيره »

» .

كون .

نحو أن تقول[1] : ركبت « برقاً » فتعني[2] به « فرساً » كالبرق سرعة . ورأيت بحراً ، أي : سخياً كالبحر .

وأما المشتق : فشرطه أن يشارك المشتق منه في حروفه الأصلية ويوجد فيه بعض[3] معناه ، ويخالفه إما في الحركات نحو « ضَرَبَ » و « ضَرِب » أو في الزوائد من الحروف نحو « ضرب » و« ضارب » و « استضرب » أو في التقدير نحو « المختار » إذا كان فاعلاً أو مفعولاً وسائر ما تقدم .

فقد بان بهذه الجملة أنواع مفردات الألفاظ وما يقع فيه الاشتباه .

وأما المركب من اللفظ : فما ركب من هذه الثلاثة . والتركيب على ضربين :

تركيب يحصل به جملة مفيدة ، وذلك : إمَّا مِن[4] اسْمَيْنِ ، أو مِن[5] اسْم وفِعْل ، أو تقدير ذلك .

وتركيب لا يحصل به ذلك ، ويكون إما مِن اسْمَيْنِ يُجْعلان [اسْماً][6] واحداً ، نحو خمسة عشر وبعلبَّك . أو اسم مضاف إلى اسم نحو عبدالملك . أو اسم وفعل ، نحو : تأبطَّ شرّاً ، أو إسم وحرف[7] نحو سيبويه[8] ، أو فعل وحرف نحو « هلم » ، أو حرفين نحو « إنما » أو من جمل من الكلام ، وذلك لا يكون إلّا بحذف بعضها ، نحو « بَسْمَلة » و« حَيْعَلَة » و « حَوْقَلَة » في قولهم : بسم الله وحي على الصَّلاة ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

---

(١) في « ت » : يقول .

(٢) في « ت » : فيعني .

(٣) في « ع » : ببعض .

(٤) في « ت » : في .

(٥) في « ت » : في .

(٦) ساقط من « ع » .

(٧) في « ع » : وصوت . ولعلّ هذه أصوب من « حرف » ، لأن الكلمة فارسية كما ترى في هامش « ٦ » .

(٨) جاء في لسان العرب : « والسِّيب : التفاح ــ فارسي ــ قال أبو العلاء : وبه سُمِّي « سيبويه » ، « سيب » تفاح . و « وَيْه » : رائحته . فكأنه رائحة تفاح .

وجميع ما يقع فيه الشبهة[1] من الكلام المركب لا يخلو :

ـ إما أن يكون الشيء يرجع إلى مفردات الكلام ، وذلك على التفصيل المتقدم .

ـ وإما لشيء لا يرجع إلى ذلك ، وذلك لا يخلو إما أن يكون من جهة المعنى أو من جهة اللفظ :

فأما [ما كان][2] من جهة المعنى : فلا سبيل إلى إزالته بتغيير[3] العبارات . وذاك أن المعاني ضربان : جلي وغامض :

فالجلي : ما يمكن إدراكه بأدنى تأمل ، كقوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا** ﴾[5] إلى قوله ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[6] .

وأما الغامض : فعلى ثلاثة أضرب :

الأول : أن يكون المعنى في نفسه خفياً ، نحو الكلام في صفات الباري ـ سبحانه ـ ونفي التشبيه عنه .

والثاني : أن يكون الكلام أصلاً يَشتمل[7] على فروع (تتشعب منه)[8] كالآيات الدالة على الأحكام .

الثالث : أن يكون مثلاً وإيماءً[9] ، كقولهم : « الصيف[10] ضيعت اللبن » وذلك لأن

---

(١) في « ع » : الشُّبَه .
(٢) ساقط من « ت » .
(٣) في « ع » : بتعيين . وهو تصحيف .
(٤) النساء : ٣٦ .
(٥) الأنعام : ١٥١ .
(٦) الأنعام : ١٥٣ .
(٧) في « ت » : تشتمل .
(٨) في « ت » : يشعب منها .
(٩) في « ع » : دائماً وهو تصحيف .
(١٠) في « ع » : في الصيف . وسيأتي شرح هذا المثل فيما بعد

ظاهره ينبيء عن شيء ، والمقصود غيره . وذلك في القرآن كقصة موسى مع الخضر في كسر[1] السفينة ، وقتل النفس [الزكية بغير نفس][2] وإقامة جدار من غير نفع ظاهر [3] ، وكقصة الخصمين إذ دخلوا على داود ففزع منهم[4] . وكقوله : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم** ﴾ [5] .

واللفظ أيضاً ضربان :

لفظ جلي : وهو أن يقع كيفيات اللفظ وكمياته على حسب ما يجب ، وكما يجب . نحو قوله تعالى [6]: ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

ولفظ غامض : وذلك من ثلاثة أوجه :

ــ إما من جهة الكيفية : وذلك بتقديم ما يقدر تأخيره . أو تأخير ما يقدر تقديمه نحو قول الشاعر :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه[7]

---

(١) يريد : خرق السفينة ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى : « فلما ركبا في السفينة خرقها » الآية : ٧١ من الكهف .

(٢) زيادة من « ع » . والاشارة بذلك إلى قوله تعالى : « ... حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس الآية : ٧٤ من الكهف .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه** ﴾ الآية : ٧٧ من الكهف .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم** ﴾ صٓ : ٢١ ــ ٢٢ .

(٥) النمل : ٨٢ .

(٦) زيادة من « ت » .

(٧) البيت للفرزدق كما في ديوانه : ١٠٨ ، وهو ــ عند الشنتمري ــ مما أنشده الأخفش كما جاء في حاشية كتاب سيبويه : ١٤/١ ، وقد قال الشنتمري في معناه : أراد وما مثله في الناس يقاربه إلا مملكاً أبو أم هذا المملك ـ أبو أم هذا الممدوح ــ وأراد بالمملك : الخليفة هشام بن عبد الملك ، وخاله الذي أبوه أبو أمه ابراهيم بن هشام المخزومي . وتلخيص معنى البيت : ما مثل هذا الممدوح في الناس إلّا الخليفة الذي هو ابن أخته . وهذا المعنى مع سخفه أمثل مما عبر به عنه من لفظه ، لأنه فرق بين النعت والمنعوت في قوله « حي .. يقاربه » بخبر المبتدأ وهو قوله « أبوه » وفرق بين المبتدأ الذي هو « أبو أمه » وبين خبره بقوله « حي » فأحال اللفظ حتى عمي المعنى السخيف ، فازداد قبحاً إلى سخفه » .

وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا** ﴾[1]

ــ وإما من جهة الكمية : وذلك إمّا من جهة البسط في الكلام . أو من جهة الحذف والإيجاز . فما كان من جهة البسط ، فكقوله تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق** ﴾[2] الآية

---

(١) يقول الطبري ٢٨ : ١٠٢ : « .. معنى الكلام : ولولا أن تطؤا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم ، فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ، لأذن الله لكم أيها المؤمنون في دخول مكة ، ولكنه حال بينكم وبين ذلك (ليدخل الله في رحمته من يشاء) يقول : ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء ، قبل أن تدخلوها . وحذف جواب « لولا » استغناء بدلالة الكلام عليه ، وقوله (لو تزيلوا) : يقول : لو تميّز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، الذين لم تعلموهم منهم ، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم (لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) يقول : لقتلنا من بقي فيها بالسيف ، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل) . وواضح في أول الكلام تقديم « تطؤهم » في التقدير على حين هي مؤخرة في التلاوة » . ويقول مكي بن أبي طالب في كتابه « مشكل إعراب القرآن » ٦٧٨/٢ ــ « ان تطؤهم » : أن : في موضع رفع على البدل من « رجال » أو « نساء » أو في موضع نصب على البدل من الهاء والميم في تعلموهم » التقدير ــ على القول الأول :ــ ولولا وطؤكم رجالاً مؤمنين لم تعلموهم فتصيبكم « منهم معرة » .
ــ وعلى القول الثاني ــ: ولولا رجال مؤمنون لم تعلموا وطأهم فتصيبكم » .

وقد أشار الراغب إلى هذه الآية وإلى غيرها في المفردات حين قال : « وضربٌ لنظم الكلام نحو « أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً » تقديره : « الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً ، وقوله : « ولولا رجال مؤمنون » إلى قوله : « لو تزيّلوا » .

(٢) البقرة : ١٧١ ومراده ببسط الكلام اجتماع الكاف مع « مثل » في قوله « كمثل » وقد وضح ذلك في كتابه المفردات حيث قال : « وضرب لبسط الكلام ، نحو « ليس كمثله شيء » لأنه لو قيل : ليس مثله شيء كان أوضح للسامع .

وقد جاء في تفسير آية البقرة ثلاثة أقوال لخصها ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير : ١٧٤/١ : « احدها : ان معناها : ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي ينعق بها الراعي ــ وهذا قول الفراء وثعلب ــ قالا جميعاً : أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي ، ولم يقل : كالغنم ، والمعنى : ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي اكثر من الصوت ، فلو قال لها الراعي : ارعى ، أو اشربي . لم تدر ما يقول لها ، فكذلك الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن ، وإنذار الرسول ، فأضيف التشبيه إلى الراعي ، والمعنى في المرعي ، وهو ظاهر في كلام العرب ، يقولون : فلان يخافك كخوف الأسد ، والمعنى : كخوفه الأسد [لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف] .

ــ وكقوله : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾[1]

وما كان من جهة الإيجاز والحذف : فكقوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾[2] .

ــ واما من جهة الإضافة : وذلك بحسب اعتبار حال المخاطب . نحو قولك : « افعل » في الطلب والشفاعة والأمر .

والثاني : ان معناها : ومثل الذين كفروا ، ومثلنا في وعظهم ، كمثل الناعق والمنعوق به ، فحذف « ومثلنا » اختصاراً ، إذ كان في الكلام ما يدل عليه ــ وهذا قول ابن قتيبة والزجاج .

والثالث : ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي يعبدون ، كمثل الذي ينعق ــ هذا قول ابن زيد ــ والذي ينعق هو الراعي ، يقال : نعق بالغنم ، ينعق نعقاً ونعيقاً ونعاقاً ونعقاناً .

قال ابن الأنباري : والفاشي في كلام العرب أنه لا يقال : « نعق » إلا في الصياح بالغنم وحدها فالغنم تسمع الصوت ولا تعقل المعنى » .

(١) الآية : ٢٨ من سورة الروم ، وهي أيضاً كسابقتها في دلالتها على مراد المؤلف ببسط الكلام وقد قال فيها ابن الجوزي ٢٩٨/٦ ــ ٢٩٩ « سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبُّون فيقولون : لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فنزلت هذه الآية ــ قال سعيد بن جبير ومقاتل ــ ومعنى الآية : بيَّنَ لكم أيها المشركون شبهاً ، وذلك الشبه من أنفسكم ، ثم بيّنه فقال : هل لكم مما ملكت أيمانكم ــ أي من عبيدكم ــ من شركاء فيما رزقناكم ــ من المال والأهل والعبيد ، أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم ــ فأنتم فيه سواء ــ أي انتم وشركاؤكم من عبيدكم سواء ــ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ــ أي كما تخافون أمثالكم من الأحرار وأقرباءكم كالآباء والأبناء ؟ قال ابن عباس : تخافونهم ان يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً ؟ وقال غيره : تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء ؟ والمعنى :

هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك ، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيرَه من الشركاء الأحرار ؟! فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فلِمَ عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي .

(٢) الآية : ١٧٨ من سورة البقرة . وقد بين الطبري ما تنطوي عليه من الحذف المقدر حين قال : قال أبو جعفر : يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ياأولي الألباب ﴾ : ولكم ياأولي العقول ، فيما فرضت عليكم وأوجبت لبعضكم على بعض ، من القصاص في النفوس والجراح والشجاج ، ما منع به بعضكم من قتل بعض ، وقَدَع [كفّ] بعضكم عن بعض ، فحييتم بذلك ، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة . ــ الطبري : ٣٨١/٣ .

فصل في الآفات المانعة من فهم المخاطَب مراد المخاطِب

الآفات المانعة من ذلك ثلاثة :

الأولى : راجعة إلى الخطاب : إما من جهة اللفظ ، أو من جهة المعنى ، وقد تقدم ذلك .

والثانية : راجعة إلى المخاطِب ، وذلك لضعف تصوّره[1] لما قصد الإنباء عنه ، أو قصور عبارته عن تصوير ما قصد الإنباء عنه . وخطاب الله — عز وجل — منزه عنها .

والثالثة : راجعة إلى المخاطَب ، وذلك إما لبلادة فهمه عن تصور أمثال ذلك من المخاطبة . وإما لشغل خاطره بغيره ، وذلك وإن كان موجوداً في بعض المخاطبين بالقرآن ، فغير جائز أن يشمل كافة المخاطبين ، إذ من المستبعد أن يكون الناس قاطبة لا يفهمونه .

---

(١) في « ت » : ما .

فصل في عامة ما يوقع الاختلاف ويُكثِرُ الشُّبَه

وذلك ثلاثة [أشياء][1] حقُّ العالم أن يعني بتهذيبها ، وسد الثُّلَم المنبثقة عنها :
احدها : [وقوع الشبه من الألفاظ المشتركة . وقد تقدم][2] .
[والثاني : اختلاف النَّظَرَيْن][3] من جهة الناظرين . وذلك كنظر فرقتي أهل الجبر والقدر [حيث اعتبر أهل الجبر][4] السبب الأول فقالوا : الأفعال كلها من جهة الباري ـــ سبحانه وتعالى ـ إذ لولاه لم يوجد شيء منها . وقال أهل القدر : إن الممكنات من جهتنا حيث اعتبروا السبب الأخير ، وهو المباشر للفعل دون السبب الأول .
والثالث : اختلاف نظر الناظرين من اللّفظ إلى المعنى ، أو من المعنى إلى اللّفظ . وذلك كنظر الخطابي[5] إلى اللّفظ في إثبات ذوات الأشياء . ونظر الحكماء من ذوات الأشياء إلى الألفاظ .

---

(١) زيادة من « ع » .
(٢) ساقط من « ع » .
(٣) ساقط من « ع » .
(٤) ساقط من « ت » .
(٥) الخطابي : هو حمد بن إبراهيم بن خطاب المتوفي سنة ٣٨٨ هـ وصاحب كتاب « بيان اعجاز القرآن » وقد نقل رأيه في الإيمان بالصفات شيخ الإسلام ابن تيمية في « رسالة الفتوى الحموية الكبرى » صفحة ٤٦ وأشار ابن تيمية إلى مصدره في النقل وهو رسالة الخطابي المشهورة في « الغنية عن الكلام وأهله » وقد قال الخطابي في هذه الرسالة : « فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة ، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف ، وإنما القصد في سلوك الطريق المستقيمة بين الأمرين . ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه . والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله ، فإذا كان معلوماً أن إثبات ذات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف فإذا قلنا : يد وسمع وبصر ، وما أشبهها ، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول : إن معنى « اليد » : القوة ، والنعمة ، ولا معنى السمع والبصر : العلم . ولا نقول إنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل ، ونقول : إن القول إنما وجب بإثبات الصفات لأن التوقف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها ، لأن الله ليس كمثله شيء . وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات » .

وذلك نحو الكلام في صفات الباري — عز وجل — فإن الناظر [من اللفظ][6] وقع عليه الشبهة العظيمة في نحو قوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾[7] وقوله ﴿ تجري بأعيننا ﴾[8] وما يجري مجراه .

وأهل الحقائق لما تبينوا[9] بالبراهين ان الله تعالى واحد منزه عن التكثر — فكيف عن الجوارح — بنوا الألفاظ على ذلك ، وحملوها على مجاز اللغة ومشاع[10] الألفاظ فصينوا عما وقع فيه[11] الفرقة الأولى[12] .

---

(٦) زيادة من « ع » .
(٧) الآية : ٦٤ من سورة المائدة . ويقصد بالشبهة العظيمة شبهة التشبيه ، غير أن الخطابي الذي اعتبره الراغب ناظراً من اللفظ إلى المعنى قد صرّح تصريحاً قاطعاً بنفي ذلك كله حينما قال : « ولا نقول إنها جوارح ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل .. » ومما يوضح رأي الخطابي ما ذكره ابن تيمية في « الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله تعالى » صفحة : ٨ — ١٣ فانظره هناك .
(٨) القمر : ١٤
(٩) في « ع » : بينوا
(١٠) في « ع » مَسَاغ .
(١١) في « ت » : عليه .
(١٢) يقصد بـ « الفرقة الأولى » : الناظرين من اللفظ إلى المعنى ، وهم الخطابي ومن قال بقوله في الإيمان بآيات الصفات . والذي لابد من بيانه هنا أن كلام الخطابي في غاية الوضوح ولا يتأتى منه أي إشكال لأنه يقوم على إثبات الصفة ونفي التشبيه والتكييف . أما اللجوء إلى المجاز في هذا فابن تيمية يرى أنه لا يصار إليه — وإن كان لا يسميه مجازاً — إلا بقرينة دالة عليه في سياق الكلام ، وهو ينكر فكرة تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، كما ينكر أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة فإذا تعذر ذلك حمل على المجاز . وعنده أن ما يسمّى بالمجاز إذا دلت عليه قرينة في سياق الكلام فهو حقيقة ، وما يسمى بالحقيقة لابد أيضاً من قرينة تدل عليه في سياق الكلام . وعلى هذا فلا حاجة لهذا التقسيم إلى حقيقة ومجاز ، ولا حاجة إلى اعتبار الحقيقة هي الأصل فإذا تعذرت حمل الكلام على المجاز ، فالقرينة في سياق الكلام هي التي تحدد المعنى المراد ، وفي كلا الحالين يكون المعنى حقيقة . وبالنسبة لآيات الصفات عنده فالقرائن تدل على أن المراد بها ما يسمّى بالحقيقة — في اصطلاح القائلين بالحقيقة والمجاز .

فصل في أقسام ما ينطوي عليه القرآن من أنواع الكلام

وقد تقرر أن أنواع الكلام المركب : الخبر ، والاستخبار . والأمر والنهي والطلب والشفاعة[1] . والوارد في كلام الله تعالى من ذلك : الخبر والأمر والنهي ، وذلك[2] أن علّام الغيوب لا يحتاج إلى الاستخبار . وكل ما ورد من ألفاظ الاستخبار فعلى الحكاية ، أو على الإنكار والتوبيخ[3] . والمولى

---

(١) قال ابن فارس في « الصاحبي » ١٧٩ ــ « باب معاني الكلام . وهي عند أهل العلم عشرة : خبر واستخبار ، وأمر ونهي ، ودُعاء وطلب ، وعَرْض وتحضيض ، وتمنّ وتعجب » .

(٢) في « ع » : وذاك .

(٣) قال ابن فارس في « الصاحبي » ١٨١ : « وجملة باب الاستخبار : أن يكون ظاهره موافقاً لباطنه ، كسؤالك عما لا تعلمه ، فتقول : ما عندك ؟ ومن رأيت ؟ ويكون استخباراً في اللفظ ، والمعنى تعجب نحو : « ما أصحاب الميمنة ــ الواقعة : ٨ » وقد يسمّى هذا تفخيماً ، ومنه قوله : « ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ » يونس : ٥ تفخيم للعذاب الذي يستعجلونه . ويكون استخباراً ، والمعنى توبيخ نحو « أأذهبتم طيباتكم ــ الاحقاف : ٢٠ » .. ويكون اللفظ استخباراً ، والمعنى تفجّع ، نحو « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ! ــ الكهف : ٤٩ » . ويكون استخباراً والمعنى تبكيت ، نحو : « أأنت قلت للناس ــ المائدة : ١١٦ » تبكيت للنصارى فيما ادّعوه . ويكون استخباراً ، والمعنى تقرير ، نحو قوله ــ جل ثناؤه : « ألست بربكم ــ الاعراف : ١٧٢ » ، ويكون استخباراً والمعنى تسوية ، نحو : «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ــ البقرة : ٦ » ويكون استخباراً والمعنى استرشاد ، نحو : « أتجعل فيها من يفسد فيها ــ البقرة ، ٣٠ » ويكون استخباراً والمعنى إنكار نحو : « أتقولون على الله مالا تعلمون ــ الأعراف :٢٨ ».. ويكون اللفظ استخباراً ، والمعنى عرض ، كقولك : ألا تنزل ؟ ويكون استخباراً ، والمعنى تحضيض ، نحو قولك : هلّا خيراً من ذلك ؟ .. ويكون استخباراً ، والمراد به الإفهام ، نحو قوله ــ جل ثناؤه : « وما تلك بيمينك ــ طه : ١٧ » قد علم الله أن لها أمراً قد خفي على موسى ــ عليه السلام ــ فأعلمه من حالها ما لم يعلمه. ويكون استخباراً ، والمعنى تكثير ، نحو قوله ــ جل ثناؤه : « وكَمْ من قرية أهلكناها ؟ ــ الأعراف : ٤ » . « وكأيّن من قرية ؟ ــ الحج : ٤٨ » .. ويكون استخباراً ، والمعنى نفي ، قال الله ــ جل ثناؤه : « فمن يهدي من أضَلَّ الله ؟ ــ الروم : ٢٩ » فظاهره استخبار ، والمعنى : لا هادي لمن أضلَّ الله ، والدليل على ذلك قوله ــ في العطف عليه : « وما لهم من ناصرين » ... ومنه قوله ــ جل ثناؤه : « أفأنت تنقذ من في النار ؟ الزمر : ١٩ » أي : لستَ منقذهم . وقد يكون اللفظ استخباراً ، والمعنى إخبار وتحقيق ، نحو قوله ــ جل ثناؤه ــ « هل أتى على الانسان حين من الدهر ؟ الانسان : ١ » قالوا : معناه : قد أتى ويكون بلفظ الاستخبار ، والمعنى تعجّب ، كقوله ــ جل ثناؤه ــ « عَمَّ يتساءلون ؟ النبأ : ١ » و « لأي يوم أُجّلت ــ

لا يطلب من عبده ، ولا يتشفع إليه . فإذن هذه الثلاثة ساقطة من القرآن .

والخبر : ما ينطلق عليه الصدق والكذب . وخاصته انه يتعلق بالأزمان الثلاث .

والأمر والنهي : لا ينطلق عليهما ذلك . ولا يتعلقان[4] إلّا بالمستقبل .

وفائدة الخبر ضربان :

أحدهما : إلقاء ما ليس عند المخاطب إليه ليتصوره نحو أمور الآخرة من الثواب والعقاب .

والثاني : إلقاء ما قد تصوره ليتأكد عنده . وعلى ذلك جميع ما ورد في القرآن مما علم بالعقل مثل : ﴿ الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ﴾ .

وفائدة الأمر والنهي شيئان :

احدهما : حث المخاطب على اكتساب محمود واجتناب مذموم .

والثاني : حثه على الوجه الذي به يكتسب المحمود ويجتنب المذموم المقررين[5] عند المخاطب .

والفرض الأقصى من الخطاب الخبري : إيصال المخاطب إلى الفرق بين الحق والباطل ليعتقد الحق دون الباطل .

ومن الأمر والنهي : ان يفرق بين الجميل والقبيح ، ليتحرىّ الجميل ، ويجتنب القبيح .

المرسلات : ١٢ » .

ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضع في الشرط ، وهو في الحقيقة للجزاء ، وذلك كقول القائل : « إن اكرمتك تكرمني ؟ » المعنى أتكرمني إن اكرمتك ؟ قال الله ــ جل ثناؤه : « أفإن متّ فهم الخالدون ــ الانبياء : ٣٤ » تأويل الكلام : أفهم الخالدون إن مت ؟ ومثله : « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ــ آل عمران : ١٤٤ » تأويله : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات ؟ .

وربما حذفت العرب ألف الاستفهام ... وعلى هذا حَمَل بعض المفسرين قوله ــ جل ثناؤه ــ في قصة إبراهيم عليه السلام : « هذا ربي ــ الانعام : ٧٧ » أي : أهذا ربي ؟ » .

(٤) في « ت » : يتعلق وهو خطأ من الناسخ .

(٥) في « ت » : المقرران . وهو خطأ من الناسخ .

وكل[1] خبر : فإما[2] أن يكون مُعْرِباً عما يلزم اعتقاده ، فيسمى « الخبر الاعتقادي » ، وذلك نحو ما ينطوي عليه قوله : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر** ﴾[3] الآية .

وإما أن يكون منبئاً[4] عما يقتضي الاعتبار به ، فيسمى « الخبر الاعتباري » كأخبار الأنبياء وأممهم والقرون الماضية ، والاخبار عن خلق السموات والأرض .

وكل أمر ونهي : فإما أن يكون أمراً بما يقتضي العقل حسنه ونهياً عما يقتضي العقل قبحه ، فيسمى « الأوامر والنواهي العقلية » .

أو أمراً[5] بما تقصر[6] عقولنا عن معرفة حسنه ، ونهياً عما تقصر عقولنا عن معرفة قبحه ، فيُسَمّى[7] « الأوامر والنواهي الشرعية » .

والفرق بين العقلي منها والشرعي : ان العقلي لا يتغير على مرور الأيام ، ولا ينسخ في شيء من الأزمان . والشرعي : ما يتسلط عليه النسخ والتبديل ، بحسب ما يتعلق به من المنافع .

---

(١) في « ع » أكل .
(٢) في « ع » : إمّا .
(٣) النساء : ١٣٦ .
(٤) في « ت » : مبنياً .
(٥) في « ت » : أمر وهو تصحيف .
(٦) في « ت » : يقصر .
(٧) في « ت » : فتسمّى .

فصـــل في كيفية بيـان القـرآن

اعترض [بعض][1] الناس فقال : كيف وصف القرآن بالبيان . فقال تعالى : ﴿ **هذا بيان للناس** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **يبين الله لكم أن تضلوا** ﴾[3] ، وقال : ﴿ **بلسان عربي مبين** ﴾[4] ، وقال : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات** ﴾[5] ، وقد علم ما فيه من الإشكال والمتشابه ، وما يجري مجرى الرموز ، نحو قوله تعالى : ﴿ **وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت** ﴾[6] وقوله : ﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون** ﴾[7] وقد[8] وصفه تعالى بالمتشابه ، وبأنه لا يعلم تأويله إلّا هو ؟

فالجواب : ان البيان المشروط فيه ، إنما هو بالإضافة إلى أعيان [أرباب][9] أهل الكتاب ، لا إلى كل من يسمعه[10] ممّن دبّ ودرج ، فقد علمنا أن ذلك ليس ببيان لمن ليس من أهل العربية . ثم أحوال أهل العربية مختلفة في معرفته . ولو كان البيان لا يكون بياناً حتى يعرفه العامّة لأدّى إلى ان يكون [البيان][11] في الكلام[12] السّوقي والعامي[13] ، أو إلى ان لا يكون بياناً[14] بوجه ، إذ كل كلام بالإضافة إلى قوم بيان ، وبالإضافة إلى آخرين

---

(١) سقطت من « ت » .
(٢) آل عمران : ١٣٨ .
(٣) النساء : ١٧٦ .
(٤) الشعراء : ١٩٥ .
(٥) النور : ٣٤ .
(٦) البقرة : ١٠٢ .
(٧) الأنبياء : ٩٦ .
(٨) في « ت » : قد .
(٩) زيادة من « ت » .
(١٠) في « ع » : يستمعه .
(١١) ساقطة من « ت » .
(١٢) في « ع » : كلام .
(١٣) في « ع » : العامي .
(١٤) في« ت » : بيان .

ليس ببيان .

وقد علم ان قوله تعالى : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم[1] ﴾ وقوله ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ﴾ [2] من أشرف كلام ، ولاحظ في معرفته لمن [لم][3] يتوفر نصيبه من البلاغة . وكذلك قول الشاعر [4] : فاقْطَعْ لُبَانَة مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ

وقول الآخر[5] : وما المرأ مادامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

من أفصح كلام ولا يعرفه جميع الأنام .

ثم إن القرآن وإن كان في الحقيقة هداية للبرية فإنهم لن يتساووا في معرفته ، وإنما يحيطون[6] به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم .

فالبلغاء تعرف من فصاحته ، والفقهاء من أحكامه ، والمتكلمون من براهينه العقلية وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه ، وقد علم أن الانسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه . وعلى ذلك أخبار النبي ـــ عليه السلام ـــ ولهذا[7] قال عليه السلام : « نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها كما سمعها حتى يؤديها إلى من لم يسمعها فرّب مُبَلَّغ أوعى من سامع »[8] .

---

(١) الأنفال : ٥٧ .

(٢) الأنفال : ٥٨ .

(٣) زيادة من « ع » .

(٤) البيت للبيد من معلقته وشطره الثاني : « ولَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها » الديوان : ١٦٧ ـــ دار صادر .

(٥) البيت لامرىء القيس وقد جاء قبله : ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي
ـ الديوان : ١٤٥ ـــ دار صادر .

(٦) في « ع » : يخطئون . وهو تصحيف .

(٧) في « ع » : ولذلك .

(٨) الحديث في مسند أحمد ـــ ٤٣٧/١ ولفظه : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرب مبلغ أحفظ له من سامع . وفي سنن أبي داود برقم (٣٦٦٠) ولفظه : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . وفي سنن ابن ماجه برقم « ٣٠٥٦ » ولفظه : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » . وانظره أيضاً في جامع الأصول : ١٨/٨ .

فصل في الفرق بين التفسير والتأويل

الفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما :

لكن جعل الفسر **لإظهار** — المعنى المعقول . ومنه قيل لما ينبيء[1] عنه البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء[2] .

وجعل السفر لإبراز الأعيان **للأبصار** فقيل : سفرت المرأة عن وجهها ، وأسفر الصبح . وسفرت البيت : إذا كنسته .

والتأويل : من آل يؤول : إذا رجع والتفسير أعم من التأويل .

وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ . والتأويل : في المعاني ، كتأويل الرؤيا .

والتأويل : يستعمل اكثره في الكتب الالهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها . والتفسير : أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ والتأويل (يستعمل)[3] اكثره في الجمل .

فالتفسير : إما أن يستعمل في غريب الألفاظ نحو « **البحيرة** »[4] و « السائبة »[5] و

---

(١) في « ع » : عن .

(٢) قال الراغب في مفرداته : « الفسر : إظهار المعنى المعقول . ومنه قيل لما ينبيء عنه البول : تفسرة ، وسُمِّيَ بها قارورةُ الماء . والتفسير — في المبالغة — كالفَسْر . والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها وفيما يختص بالتأويل ، ولهذا يقال : تفسير الرؤيا وتأويلها . قال : « وأحْسَنَ تفسيراً » . وقال السيوطي في الإتقان : ١٦٨/٤ : « وقال الأصبهاني في تفسيره : « اعلم ان التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد ، أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره وبحسب المعنى الظاهر وغيره » .

(٣) ساقط من « ت » .

(٤) قال الراغب : « وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن ، شقوا أذنها ، فيسيبوها فلا تُركَب ، ولا يحملُ عليها » .

(٥) وقال الراغب في مفرداته : « السائبة . التي تسيَّب في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علَف ، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن » .

«الوصيلة»[١] أو في [وجيز يُبيِّن ويُشرح][٢] كقوله : [وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة][٣] .

وإما في كلام [مضمّن بقصة][٤] لا يمكن تصوره [إلّا][٥] بمعرفتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾[٦] وقوله : ﴿ ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾[٧] الآية .

وأما التأويل : فإنه يستعمل مرة عامّا ومرّة خاصاً ، نحو « الكفر » المستعمل تارة في الجحود المطلق ، وتارة في جحود الباري خاصة . و « الإيمان » المستعمل في التصديق المطلق تارة ، وفي تصديق دين الحق تارة .

وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة ، نحو لفظة « وجد » المستعملة[٨] في الجدة ، والوَجْد والوجود .

والتأويل نوعان : مستكره ومنقاد :

فالمستكره : ما يستبشع إذا سُبِرَ بالحجة ، ويستقبح بالتدليسات[٩] المزخرفة[١٠] وذلك على أربعة

---

(١) قال الراغب : « وقوله : ولا وصيلة : وهو أن أحدهم كان إذا ولدت له اته ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها » .

(٢) في « ع » : تبيين وشرح وهي عبارة قاصرة وفي الإتقان : ١٦٨/٤ : « وجيز يبين بشرح » .

(٣) البقرة : ٤٨ ، ٨٣ . وقد تكررت في سور أخرى .

(٤) في الاتقان : ١٦٨/٤ : « متضمن لقصة » .

(٥) سقطت من « ت » .

(٦) الآية : ٣٧/من سورة التوبة ـــ وقد قال الراغب في مفرداته : « ومنها النسيء الذي كانت العرب تفعله ، وهو تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر » .

(٧) الآية (١٨٩) من سورة البقرة ، وقد قال مكي بن أبي طالب في قصتها : « كان ناس من الأنصار إذا أهلّوا بالعمرة لم يَحُل بينهم وبين السماء شيء ـــ يتحرجون من ذلك ـــ فإذا خرج الرجل مهلاً ثم بدت له حاجة رجع فدخل بيته من ظهره ، من أجل السقف لئلا يحول بينه وبين السماء فأعلموا أنه ليس من البر » .

(٨) في « ع » : المستعمل وكذلك في الإتقان ، لكنها في الإتقان جاءت صفة لـ « لفظ » بالتذكير ـــ بدلاً من « لفظة » انظر الإتقان : ١٦٨/٤ .

(٩) في « ع » : بالتدليات . وهو تصحيف .

(١٠) في « ع » : المزخرفة المزوجة .

أضرب :

الأول : أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته ، نحو قوله تعالى : ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾(1) حمله بعض الناس على علي بن ابي طالب رضي الله عنه ـــ فقط .

والثاني : أن يلفق(2) بين اثنين ، نحو قول من زعم أن الحيوانات كلها مكلفّة محتجاً بقوله تعالى : **﴿ وإن من أمة إلّا خلا فيها نذير ﴾**(3) وقد قال تعالى : **﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أمَم أمثالكم ﴾**(4) فدلّ بقوله : **﴿ إلا أمم امثالكم ﴾** أنهم مكلفون كما نحن مكلفون .

الثالث(5) : ما استعين فيه بخبر مزوّر أو كالمزوّر ، كقوله تعالى : **﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾**(6) ، قال بعضهم : **عني** به الجارحة مستدلاً بحديث موضوع (7) .

والرابع : ما يستعان به (8) باستعارات واشتقاقات بعيدة ، كما قاله بعض الناس في البقر : انه (إنسان)(9) يبقر عن أسرار العلوم . وفي الهدهد : إنه إنسان (موصوف)(10) بجودة البحث والتنقير .

---

(1) التحريم : ٤ .

(2) في « ع » : تلفق .

(3) فاطر : ٣٤ .

(4) الأنعام : ٣٨ .

(5) في « ع » : والثالث .

(6) القلم : ٤٢ .

(7) لعله يريد بالحديث الموضوع ما جاء في تفسير ابن كثير عن النبي ﷺ قال « يوم يكشف عن ساق » يعني : عن نور عظيم يخرون له سجداً » وقد علّق عليه ابن كثير بقوله : ورواه ابو يعلى عن القاسم بن يحيى عن الوليد بن مسلم به . وفيه رجل مبهم والله أعلم . وقد أورد ابن كثير في سياق تفسيره حديث أبي سعيد الخدري وهو مخرج في الصحيحين وغيرهما فانظره هناك .

(8) في « ع » : فيه .

(9) سقطت من « ت » .

(10) سقطت من « ت » .

فالأول : أكثر ما يروج[١] على المتفقهة[٢] الذين لم يَقْوَوْا[٣] في معرفة الخاص والعام .

والثاني : على المتكلم الذي لم يَقْوَ في معرفة شرائط النظم .

والثالث : على صاحب الحديث الذي لم يتهذب في شرائط قبول الأخبار .

والرابع : على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات .

والمنقاد من التأويل : مالا يعرض فيه البشاعة المتقدمة . وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين في العلم لإحدى جهات ثلاث :

ــ إما لاشتراك في اللفظ : نحو قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾[٤] هل هو من بصر العين أو من بصر القلب ؟

أو لأمر راجع إلى النظم . نحو قوله : ﴿ **وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا** ﴾[٥] **هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف ، أو مردود إليه وإلى المعطوف عليه معاً ؟**

ــ وإما لغموض المعنى ووجازة اللفظ ، نحو قوله تعالى : ﴿ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾[٦] . والوجوه التي يعتبر بها[٧] تحقيق أمثالها أن ينظر :

٤ ــ فإن كان ما ورد فيه ذلك أمراً أو نهياً[٨] عقلياً فزع في كشفه إلى الأدلة العقلية ، فقد

---

(١) في « ت » : روج .

(٢) في « ت » : المتفقه .

(٣) في « ت » : يقولوا . وهو تصحيف ظاهر .

(٤) الأنعام : ١٠٣ .

(٥) النور : ٤ ، ٥ .

(٦) البقرة : ٢٢٧ ، وقد جاء قبلها : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم » . وقد قال مكي بن ابي طالب في تفسيره : « فإن فاؤا » : أي : رجعوا إلى الوطء وكفرّوا عن أيمانهم ، فإن الله غفور لهم على يمينهم رحيم بهم أن يعاقبهم بعد كفارتهم ، قوله : « وإن عزموا الطلاق » : أي : إن لم يُكَفّروا ولا فاؤا إلى الوطء ، أي : رجعوا إليه وأرادوا الطلاق ، فإن الله سميع لقولهم ، عليم باعتقادهم وعزيمتهم » .

(٧) في « ع » : فيها .

(٨) في « ت » : ونهياً .

حث تعالى على ذلك في قوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[٩] .

ــ وإن كان أمراً شرعياً فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة .

ــ وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع فيه إلى الحجج العقلية .

ــ وإن كان من الأخبار الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة المشروحة في القصص .

---

(٩) ص : ٢٩ .

فصل في الوجوه التي بها يعبر عن المعنى (وبها يبين)[1]

لما كان المعنى (الواحد)[2] يقرب من الأفهام بعبارات مختلفة لأغراض متفاوتة ، وجب أن يبين الوجوه التي منها تختلف[3] العبارات عن المعنى الواحد .

فالمعنى الواحد قد يدلّ عليه بأشياء كثيرة :

اما باسمه نحو « إنسان » أو بنسبة[4] نحو « آدمي » و « ولد حواء » .

أو بإحدى[5] خصائصه اللازمة له : نحو « المنتصب القامة » أو « الماشي برجليه » أو « العريض الأظفار » وإما بفصله[6] اللازم ، كقوله : « الناطق » ،« المائت »[7].

وكما يبين الشيء بأوصاف كثيرة ، كذلك قد يبين بأسماء كثيرة متضمنة لأوصاف مختلفة ، كقولهم[8] في الجرم العلوي : « السماء » لما اعتبر ارتفاعها بالاضافة إلى الأرض و « الجرباء » : لما [اعتبروا نجومها][9] وأنها كجرب في الجلد و « الخلقاء » و « الملساء » لما اعتبروا حالها عند فقدان نجومها (بالنهار)[11] ، و « الرقعاء »[12] لما اعتبروا ظهور شبه الرقاع[13] تشبيهاً

(١) في « ع » : ويبين بها .

(٢) سقط من « ت » .

(٣) في « ت » : يختلف .

(٤) في « ع » : نسبه .

(٥) في « ع » : بأحد .

(٦) في « ع » : بفضله وهو تصحيف .

(٧) في « ع » : المائية .

(٨) في « ت » : كقولك .

(٩) في « ت » : اعتبر بنجومها .

(١٠) في « ت » : اعتبر بحالها .

(١١) ساقط من « ع » .

(١٢) في « ت » : الرقيع .

(١٣) زيادة من « ع » . وقد جاء بعدها كلمة « في المرقع » والكلام من « تشبيهاً » إلى « ظهور الرقاع » ساقط من « ع » .

بالثوب المرقوع ـــ لظهور نجومها ظهور الرقاع في المرقع ، و « الخضراء » لما اعتبروا[1] لونها .

وعلى ذلك قولهم [في المرأة][2] : « الزوج » لما اعتبرت بازدواجها بالرجل ، و « الظعينة » لما اعتبر ظعنها معه ، و « القعيدة » لما اعتبرت بقعودها في البيت أو بكونها مطية له كالقعود من الجمال ، والقعدة من الأفراس ، ألا ترى أنها سميت « مطية » في قول الشاعر :

مطيـــات السرور فويـــــق عشر إلى عشريـــن ثم قف المطايـــا[3]

و « حليلة » [4] إذا اعتبر حلولها معه ، أو حلّ الإزار له .

وذلك يفعل لأحد أمرين :

إما لأن الشيء [في نفسه][5] لا يمكن إبرازه إلّا بالعبارات الدالة على أوصافه كمعرفة الله ـــ عز وجل ـــ لما صعبت[6] لم يكن لنا سبيل [اليها][7] إلا بصفاته ، وكأن الله تعالى جعل لنا أن نصفه بهذه الأوصاف لتكون لنا ذريعة إلى معرفته ، إذ لا سبيل لنا إليها إلّا استدلالاً بأوصافه وأفعاله . ولذلك قال [موسى][8] ـــ عليه السلام ـــ لما سأله فرعون : « وما رب العالمين »[9] ؟ « قال : **رب السموات والأرض وما بينهما** » . ولمّا[10] قال له : « فمن ربكما

---

(١) في « ت » : اعتبر .

(٢) ساقط من « ت » .

(٣) البيت ورد في أمالي الزجاجي منسوباً لمحمد بن عبدالله بن طاهر بلفظ :

مطيّات السرور بنات عشر إلى عشرين ثم قف المطايا .

وقد جاء بعده : فإن جاوزتهن فسر قليلاً بنات الأربعين من الرذايا .

إلى ان قال : مقاساة النساء مع الليالي إذا أَوْلَدْتُهُنَّ من البلايا .

(٤) في « ع » : حليه . وهو تصحيف . امالي الزجاجي : ٩٦ بتحقيق عبدالسلام هارون .

(٥) ساقط من « ت » .

(٦) في « ت » : صعب .

(٧) سقطت من « ت » .

(٨) ساقط من « ت » .

(٩) الشعراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(١٠) في « ت » : كلا وهو خطأ من الناسخ .

ياموسى »[1] ؟ « قال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[2] فلم يجبه عن الماهية ، لما كان الباري تعالى منزهاً عنها ، وأحاله[3] على صفاته الكثيرة .

وإما لأن الشيء له تركيبات وأحوال ، فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم كما تقدم في أسماء السماء وبحسب ذلك قال النبي ــ عليه السلام ــ : « سميت محمداً ، وأحمد ، وخاتماً ، وحاشراً ، وعاقباً ، وماحياً ».[4] ، لأنه محمود ، وحامد ، وخاتم الأنبياء ، وحاشر ، لأنه بعث مع الساعة « نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد »[5] وعاقب لأنه عقب الأنبياء ، وماحي[6] ، لأنه محى به سيئات من اتبعه .

---

(١) طه : ٤٩ .

(٢) طه : ٥٠ .

(٣) في « ع » : إلى .

(٤) الحديث في فتح الباري : ٥٥٤/٦ برقم ٣٥٣٢ بلفظ .. « قال رسول الله ــ ﷺ : لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » . وقد تكرر أيضاً في : ٦٤٠/٧ برقم ٤٨٩٦ . كما ورد أيضاً في تحفة الأحوذي : ١٢٩/٨ برقم ٢٩٩٦ . وورد أيضاً في موطأ مالك : انظر شرح الزرقاني على الموطأ : ٤٣٢/٤ ورقمه ١٩٥٥ ، وكل هذه الروايات متفقة على الأسماء الخمسة التي ذكرها البخاري ، وليس فيها الزيادة التي ذكرها الراغب وهي « خاتم » .

(٥) اقتباس من قوله تعالى : « إن هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » الآية : ٤٦ من سورة سبأ .

(٦) في « ع » ماح .

فصل في الحقيقة والمجاز

الحقيقة مشتقة من الحق ، والحق يستعمل على وجهين :[١]

أحدهما : في الموجود الذي وجوده بحسب مقتضى الحكمة ، نحو قولنا : الموت حق ، والبعث حق ، والحساب حق .

والثاني : للاعتقاد المطابق لوجود الشيء في نفسه ، أو في القول المطابق لمعنى الشيء الذي هو عليه ، نحو أن يقال : ان اعتقاد فلان في البعث حق . وقوله في الثواب والعقاب حق . ويضاد « الحق » : الباطل . وإذا فهم الحق فهم الباطل ، لأن العلم بالمتضادين واحد .

وأما الحقيقة : فإنها تستعمل في المعنى تارة ، وفي اللفظ تارة :

فأما استعمالها[٢] في المعنى[٣] : فعبارة عن ما ينبيء عن الحق ويدل عليه . ولذلك قال عليه السلام لحارثة لما قال أصبحت مؤمناً حقاً : « قال : لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

---

(١) قال الراغب في مفرداته : أصل الحق : المطابقة والموافقة ، كمطابقة رِجْلِ الباب في حقّه لدورانه على استقامة . والحق يقال على أوجه : الأول : يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق ، قال الله تعالى : « ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق » وقيل بُعَيْد ذلك : « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » .

والثاني : يقال للموجَد بحسب مقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فعل الله تعالى كله حق ، وقال تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً » إلى قوله تعالى : « ما خلق الله ذلك إلّا بالحق » وقال في القيامة : « ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق » « ويكتمون الحق » وقوله عز وجل : « الحق من ربك » « وإنه للحق من ربك » .

والثالث : في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه ، كقولنا : اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق . قال الله تعالى : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق » .

والرابع : للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وفي الوقت الذي يجب ، كقولنا : فعلك حق ، وقولك حق . قال الله تعالى : « كذلك حقّت كلمة ربك » « حق القول مني لأملأن جهنم » .

(٢) في « ت » : استعماله .

(٣) في « ع » : المعنى تارة

أي : ما الذي ينبيء عن ذلك ؟ »[1]

ويستعمل في العمل والاعتقاد والخبر ، فيقال : هذا فعل وخبر وقول لها[2] حقيقة . ويستعمل في ضدها : المجاز ، والتسمح ، والتوسع ، فيقال : هذا فعل واعتقاد وخبر فيها[3] تجوز وتسمح وتوسع . ولا فرق [بين][4] أن يكون مثل هذا الخبر بلفظ مجاز أو لفظ حقيقة في أنه يقال : هو حقيقة إذا كان مطابقاً لما عليه الشيء في نفسه .

وإذا استعملت في اللفظ فالمراد به : اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل اللغة من غير نقل ولا زيادة ولا نقصان . والمجاز على العكس من ذلك[5] وكلاهما ضربان : أحدهما في مفردات الألفاظ والثاني في الجمل : فالمجاز في المفردات : إما أن يكون بنقل ، نحو فلان عظيم الحافر ويراد به القدم .

أو بزيادة نحو انظور في « انظر » وأرأيت لو كان على أبيك دين « فقضيتيه »[6] أي : قضيته .

---

(١) جاء في مجمع الزوائد ٥٧/١ : عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ بالنبي ﷺ فقال له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر الى أهل النار يتضاغون فيها . قال : ياحارثة : عرفت الأمر فالزم ـــ رواه الطبراني في الكبير ، وفيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج الى الكشف عنه . وعن أنس ـــ رضي الله عنه ـــ أن النبي ﷺ ـــ لقي رجلا يقال له حارثة في بعض سكك المدينة ، فقال : كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، قال : إن لكل إيمان حقيقة . فما حقيقة إيمانك ، قال : عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها ، وكأني بأهل النار يعذبون . فقال النبي ـــ ﷺ ـــ أصبت فالزم . مؤمن نور الله قلبه ـــ رواه البزار ـــ وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(٢) في « ع » : له . (٣) في « ع » : فيه . (٤) ساقط من « ت » .

(٥) قال الراغب في مفرداته : « والحقيقة تستعمل تارة في الشيء الذي له ثبات ووجود كقوله ـــ ﷺ ـــ لحارثة : « لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » ، أي : ما الذي ينبيء عن كون ما تدعيه حقاً ؟ وفلان يحمي حقيقته ، أي : ما يَحِقُّ عليه أن يحمي . وتارة تستعمل في الاعتقاد كما تقدم ، وتارة في العمل وفي القول ، فيقال : فلان لفعله حقيقة ، إذا لم يكن مرائياً فيه ، ولقوله حقيقة إذا لم يكن فيه مترخصاً ومستزيداً . ويستعمل في ضدّه : المتجوز ، والمتوسّع ، والمتفسح . وقيل : الدنيا باطل ، والآخرة حقيقة تنبيهاً على زوال هذه وبقاء تلك » وأما في تعارف الفقهاء والمتكلمين ، فهي : « اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل اللغة » .

(٦) في « ع » : فقضيته . وهو تصحيف .

أو بنقصان[1] نحو : دَرَسَ المنا بِمُتالع فأبانِ[2] ، أي : المنازل .

وربما يكون اللفظ الواحد من وجه حقيقة ، ومن وجه مجازاً ، نحو قولهم : فلان عظيم الاقدام نمن حيث استعمل القدم حقيقة ، ومن حيث أتى بلفظ الجمع مجاز [3] .

وأما المجاز في الجمل : فمن حيث [هي][4] جملة لا يكون إلّا بحذف أو زيادة :

أما الحذف : فما كان المحذوف منه شيئاً مستغنى عنه لدلالة عليه ، فذلك[5] من الإيجاز ، نحو حذف المخبر [عنه][6] تارة ، والخبر تارة ، والمضاف تارة ، والمضاف إليه تارة ، والمفعول تارة ، والفاعل تارة ، وأمثلتها مشهورة يستغنى عن ذكرها .

وأما الزيادة : فلا شبهة أن كل زيادة تقتضي[7] زيادة معنى ، أو بسط مختصر ، أو شرح مبهم ، فإنها[8] مستحسنة [9] متى حصل فيها [10] شرائط البلاغة ، نحو ذكر « جبريل » و « ميكائيل » بعد [11] ذكر « الملائكة » . وذكر « النخل » و « الرمان » بعد ذكر « الفاكهة » وكذلك [12] ما كان من نحو زيادة اللام في « شكرته وشكرت له » .

وأما المستنكر [المستكره][13] عند أكثر المحصلين ـــ: فكل زيادة ادّعي فيها أن وجودها وعدمها سواء كما زعم بعضهم أن ذلك كـ « الكاف » في قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله**

---

(١) في « ع » : نقصان .

(٢) هذا شطر بيت منسوب للبيد كما في « تاج العروس » و « لسان العرب المحيط » وشطره الثاني : « فتقادمت بالحِبْس فالسوبان » . و « متالع » و « أبان » : جبلان ، وقال في اللسان : إنما أراد « المنازل » فحذف ، وكذلك قول الأخطل : أَمْسَت مَناها بأرض ما يبلغها بصاحب الهمِّ إلّا الجَسْرَةُ الأُجُد أراد : أمست منازلها ، فحذف .. » وكلمة « درس » جاءت في « ع » : س . وهو تصحيف .

(٣) في « ت » : مجازاً .

(٤) ساقطة من « ت » .

(٥) في « ع » : فكذلك .

(٦) ساقطة من « ت » .

(٧) في « ت » : يقتضي .

(٨) في « ت » : فإنه .

(٩) في « ت » : مستحسن .

(١٠) في « ت » : فيه .

(١١) في « ع » : ثم .

(١٢) في « ع » : ولذلك .

(١٣) زيادة من « ع » .

شيء ﴾[1] و « الوجه » في قوله : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[2] [أي : الله][3] وقوله تعالى : ﴿ بسم الله ﴾ أي : بالله وقوله تعالى : ﴿ ما منعك ألاّ تسجد ﴾[4] أي : أن تسجد . وكل ذلك يجيء الكلام عليه في مواضعه في أنها ليست بزائدة وأن لها معاني صحيحة .

وبعض الناس تحرّوا في آيات ذكرها الله تعالى على سبيل المثل ــ تطلّب الحقائق ورأوا أن ذلك المعنى إذا لم يكن له وجود على [سبيل][5] الحقيقة كان كذباً وذلك في نحو قوله تعالى : ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾[6] وقول إبراهيم عليه السلام : « بل فعله كبيرهم هذا »[7] حتى ان بعضا[8] حمل قول النبي ﷺ : « إن إبراهيم لم يكذب إلّا ثلاث كذبات كلها يماحك بها عن دينه . قال : إني سقيم ، وهذه أختي ، وبل فعله كبيرهم » على الحقيقة ، وخفي عليه أن المذكور على وجه المثل إذا تحرّي به معنى صحيح لم يكن كذباً[9] [نحو قولنا :

---

(١) الآية : ١١ من سورة الشورى . وقد قال فيها الراغب في مفرداته : « .. وأما الجمع بين « الكاف » و « المثل » ، فقد قيل : ذلك لتأكيد النفي تنبيهاً على أنه لا يصح استعمال « المثل » ولا « الكاف » فنفى بـ « ليس » الأمرين جميعاً . وقيل : المثل ــ ههنا : هو بمعنى الصفة ، ومعناه : ليس كصفته صفة ، تنبيهاً على أنه وإن وُصِف بكثير مما يُوصَف به البشر فليس تلك الصفات له على حسب ما يُستَعمل في البشر » .

(٢) البقرة : ١١٥ .

(٣) ساقط من « ت » .

(٤) الأعراف : ١٢ .

(٥) ساقط من « ت » .

(٦) صٓ : ٢٢ .

(٧) الأنبياء : ٦٣ .

(٨) في « ع » : بعضنا .

(٩) قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : « فقال إني سقيم » : إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم لانه قد كان أزف خروجهم إلى عيد لهم فأحب ان يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه .. فأما حديث « لم يكذب إبراهيم عليه السلام غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله تعالى ، قوله : « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله في سارة : « هي أختي » فهو حديث مخرّج في الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذمّ فاعله ، حاشا وكلا وإنما اطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني » .

لمن نحثه على عمل : أَطِرِّي فإنك فاعله[1]] [كما يقال][2] لمن نعاتبه في تضييع أمر وقع منه : الصيف ضيعت اللبن[3] .

---

(١) ساقط من « ع » وفي « ت » : فاعلة وقد جاء في كتاب « فرائد اللآل في مجمع الأمثال » للشيخ إبراهيم بن السيد علي الأحدب الطرابلسي ـــ ٣٦٤/١ ـــ ٣٦٥ ما يلي :

ياذي أَطِـرِّي ان تكـوني فاعلـة إنك أنت بافتـاة ناعِلَـه

الإطرارُ : أن تركب طُرَر الطريق وهي نواحيه . وقيل معناه : أدِلّي . وقيل : اركب الأمر الشديد فإنك قوي عليه . وأصله أن رجلا قال لراعية كانت له ترعى في السُّهولة وتدع الحزونة : أطِرِّي . أي : خذي طُرَرَ الوادي . وهي نواحيه . فإن عليك نعلين ، كأنه عني بهما غِلظ جلد قدميها . وقيل « أطِرِّي » : خذي أطرار الإبل ، أي : نواحيها ، يريد : حوطيها من أقاصيها واحفظيها ـــ يضرب لمن يؤمر بارتكاب الأمر الشديد لاقتداره عليه ، ويخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكراً كان أو مؤنثاً . ويروي : أظرِّي فإنك ناعلة ـــ بالظاء المعجمة ـــ أي : اركبي الظُّرَر ، وهو الحجر المحدد ـــ والجمع : ظِرّان ، وظُرّان ـــ ويصعب المشي عليها » .

(٢) كلمة « كما يقال » وكلمة « وقع منه » بعدها لم تردافي « ت » ، وكلمة « وقع منه » لم ترد في « ع » في مكانها ،فتصرفنا بها ووضعناها في المكان المناسب .

(٣) وقد جاء في كتاب «الأمثال » الآنف الذكر ـــ ٥٤/٢ : يا هذه في الصيف ضَيَّعْتِ اللبن أى : رمت ما قد فات نيلاً من زمن . ويروى : الصيْفَ ضَيَّعْتِ اللبن ـــ وهو بكسر التاء ـــ حيث خوطبت به امرأة أولاً وهي دَخْتَنوس بنت لَقيط بن زرارة كانت تحت عمرو بن عمرو بن عُدَس ، وكان شيخاً كبيراً ففركته ، فطلقها فتزوجها فتى جميل الوجه ، وأجدبت ، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة . فقال المثل . فلما رجع الرسول وأخبرها بذلك ضربت يدها على منكب زوجها وقالت :

« هذا وَمَذقُه خير » ـــ تعني أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو ـــ فذهبت كلتاهما مثلاً يضرب الأول لمن يطلب شيئاً قد فوّته على نفسه . والثاني : يُضَرَب لمن قنع باليسير إذا لم يجد الخطير . وإنما خصّ الصيف ، لأن سؤالها الطلاق كان فيه ، أو أن الرجل إذا لم يطرق ما شيته في الصيف كان مضيعاً لألبانها عند الحاجة .

وقيل : طلّق الأسْوَد بن هرمز امرأته العنود الشنيعة رغبة عنها إلى امرأة من قومه ذات جمال ومال ثم جرى بينهما ما أدّى إلى المفارقة فَتَيمَت نفسه العنودَ فراسلها فأجابته بقولها :

أتركتنـي حتـى إذا عُلِّقـتَ أبيـضَ كالشَّطَـن
أنشأت تطـلب وصلنـا في الصيـف ضَيَّـعْتَ اللبـن

وعلى هذه الرواية تكون التاء مفتوحة لأنه خطاب لمذكر .

وانكر بعضهم قول المفسرين : إن هذا كذا مضمر . وقال : الإضمار إنما يستعمل فيمن له قلب وخاطر والله تعالى منزه عن ذلك ، وليس يراد بالإضمار هذا المعنى ، وإنما يعني أن بنية الكلام تؤدي معنى ذلك من غير نطق به ، نحو قولهم : « أحشفاً وسوء كيلة »[4] فإن هذا الكلام يقتضي أتجمع عَلَيَّ [وبه][5] مضمون الكلمة وذلك معلوم للسامع .

---

(٤) وجاء أيضاً في كتاب الأمثال الآنف الذكر ١٧١/١ :

أَحَشَفــاً وسوء كِيلَــةٍ نرى تَجْمَـعُ يازيــد علينــا المنكــرا

الكيلة : فِعْلَة من الكيل — وهي تدل على الهيئة والحالة ، نحو الجِلْسة والركبة .

والحَشَف : أردأ التمر . أي : أتجمع حشَفاً وسوء كيل — يُضْرَبُ لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين . قيل : المثل لعمرو بن معدي كرب .

(٥) زيادة من « ع » .

فصل في العموم والخصوص من جهة المعنى

وذلك ثلاثة أضرب :

عام مطلق : وهو الجنس ، نحو قولنا [الحيوان ، أو المحبوب ، وخاص مطلق مثل][1] : زيد ، وعمرو ، وهذا الرجل .

عام من وجه خاص من وجه[2] ، كالإنسان ، فإنه بالإضافة إلى الحيوان خاص وبالإضافة إلى زيد وعمرو عام .

والعام : إذا حمل على الخاص صدق القول نحو [قولنا][3] : زيد : إنسان وحيوان ، والإنسان [حيوان][4] .

والخاص : إذا حمل على العام كذب ، نحو الحيوان : إنسان . والإنسان : زيد ، إلا إذا قُيِّد لفظاً أو تقديراً ، فيقال : هذا الإنسان زيد [أو الإنسان زيد][5] ويجعل الألف واللام للعهد لا للجنس ، أو يراد أن معنى الإنسانية كَمَلًا[6] موجود في زيد .

وإذا[7] ثبت ذلك فالمفسّر إذا فسّر العام بالخاص فقصده أن يبين تخصيصه [بالذكر][8] ويذكر مثاله ، [لا أنه يريد][9] أنه هو هو لا غير .

وكثير ممن لم يتدرب بالقوانين البرهانية إذا رأى عاماً مستعملاً في خاصين قدّر أن ذلك جارٍ مجرى الأسماء المشتركة فيجعله من بابها . [وعَلَى ذلك كثير][10] مِمَّن صنّفوا في نظائر القرآن

---

(١) ساقط من « ت »

(٢) في « ع » : نحو .

(٣) زيادة من « ت » .

(٤) ساقط من « ع » .

(٥) زيادة من « ع » .

(٦) في « ع » : كله .

(٧) في « ع » : فإذا .

(٨) ساقط من « ع » .

(٩) في « ع » : لأنه لم يرد .

(١٠) في « ع » : وعلى ذلك رأيت كثيراً .

فقالوا : الإثم : ارتكاب الذنب . والإثم : الكذب ، احتجاجاً بقوله : « **لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً** »[1] والاثم : عام في المقال والفعال . وإنما خص في هذا الموضع ، لأن السماع ليس إلّا في المقال .

وعلى ذلك قال اللحياني [في][2] « الخوف » : القتال ، لقوله تعالى : ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم** ﴾[3] والقتل ، لقوله : ﴿ **وَإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾[4] والعلم ، لقوله : ﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً** ﴾[5] أي : علم[6] . وذلك من ظهور سوء التصور بحيث لا يحتاج إلى تبيين[7] .

وأما الخاص : فتفسيره بالعام جائز إذا قصد تبيين جنسه ، نحو : الحرباء دويبة . والحرباء حيوان .

---

(١) الواقعة : ٢٥

(٢) زيادة من « ت » .

(٣) الأحزاب : ١٩ .

(٤) النساء : ٨٣ .

(٥) البقرة : ١٨٢ .

(٦) قال في اللسان :... والخوف : القتل . والخوف : القتال ، وبه فسَّر اللحياني قوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع** ﴾ وبذلك فسّر قوله أيضا : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به** ﴾ والخوف : العلم ، وبه فسَّر اللحياني قوله تعالى : ﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً** ﴾ « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » .

(٧) في « ع » : تبين .

فصل في تبيين الوجوه التي يجعل لأجلها الاسم فاعلاً في اللفظ وهو فصل تكثر الشّبَه لأجله ويتعلق به الفريقان المنسوبان إلى الجبر والقدر

كل فعل من أفعال غير الله تعالى نحو : النجارة[1] ، والكتابة ، يحتاج في حصوله إلى أشياء :
إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار ، وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب . وإلى عمل كالنجر . وإلى مكان وزمان يعمل فيهما . وإلى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت . وإلى مثال يعمل عليه ويحتذى نحوه . وإلى غرض يعمل لأجله ما يعمل . ثم الفاعل قد يحتاج إلى من يسدّده ويرشده .
والغرض قد يكون على نحوين : قريب وبعيد .
فالقريب : اتخاذ النجار الباب ليحصل به نفعاً . والبعيد : ليحصن [به][2] البيت . وكل ذلك قد ينسب إليه الفعل[3] فيقال[4] : أعطاني زيد ، إذا باشر العطاء . وأعطاني الله ، لما كان هو الميّسر له . وربما جمع بين السبب القريب والبعيد ، فيقال : أعطاني الله وزيد . قال الشاعر :
حبانا به[5] جدّنا والإله وضرب لنا جذم صائب

فنسب إلى المسبب الأول ، وهو الله تعالى ، وإلى السبب الأخير وهو الضرب ، وإلى المتوسط وهو الجد . وقال تعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾[6] وقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكّل بكم** ﴾[7] فأسند الفعل في الأول إلى الآمر به . و [في][8] الثاني إلى المباشر له .

---

(١) في « ع » و « ت » : التجارة ولكن سياق الكلام يدل على أن المراد بها : « النجارة » .
(٢) زيادة من « ت » .
(٣) ساقطة من « ت » .
(٤) في « ت » : فتقول .
(٥) ساقطة من « ت » وقد أورد البيت في الذريعة إلى مكارم الشريعة وجاءه شطره الثاني : وضرب لنا أجزم صارم .
(٦) الزمر : ٤٢ .
(٧) السجدة : ١١ .
(٨) زيادة من « ع » .

وقال الشاعر في صفة درع : وألبسنيه الهالكي[1] .

وقال آخر : كساهم محرق .

[فنسب في الأول إلى عاملها وفي الثاني إلى مستعملها][3] .

وقال في صفة نِبَال : نبال كستها ريشها مضرحية[4] .

فنسب كسوتها إلى الطير التي اتخذ منها ريشها .

وقيل : « يداك أوكتا وفوك نفخ »[5] . فنسبه إلى الآلة المتصلة . ويقال سيفُ قاطع ، فنسب إلى الآلة المنفصلة . وقيل : ضربٌ فيصل ، وفاصل ، وطعنٌ جائف ، فنسب إلى الحدث ، وقيل : سرٌ كاتم وعيشة راضية فنسب إلى المفعول . وقال : « حرماً آمناً » فنسبه إلى المكان . وقيل : يوم صائمٌ ، وليل ساهر . قال : وما لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنائِم[6] .

فنسبه إلى الزمان .

---

(١) في « ع » : الهـــاوهـــو تصحيف ــ وقد قال الراغب في مفرداته : « والهالكيُّ كان حداداً من قبيلة هالك فسُمِّي كل حداد هالكياً » .

(٢) لم أجد هذا البيت ولا الذي قبله

(٣) ساقط من « ت » .

(٤) جاء في لسان العرب : المضر حيٌّ من الصقور : ما طال جناحاه وهو كريم .

(٥) ذكره البكري في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » صفحة : ٤٥٨/تحت عنوان « باب الشماتة بالجاني على نفسه الحين » : قال ابو عبيد : ويقال في مثله : « يداك أو كتاوفوك نفخ » وذكر أصله عن المفضل . وقال صاحب كتاب العين خلاف ما ذكر ، قال : كان من شأن هذا المثل أن شاباً انتهى إلى جَوَارٍ يستقين بالقِرَب ، فكان يلاعبهن ويأخذ بعض القِرَب فينفخ فيه ثم يوكه ، فاطلع عليه أخ الجارية منهن فقتله غيرةً . فجاء أخو المقتول فوجده قتيلاً ، فأخبر بما كان يصنع من ملاعبة الجواري فقال : يداك أُوكتا وفوك وعَزَّى نفسه ورجع » .

(٦) البيت لجرير وهو في كتاب سيبويه : ٨٠/١ ، ونصه :

لقد لُمتنا يا أم غيلان في السُّرى ونمت وما ليل المطيِّ بنائم

وهو في النقائض : ٧٥٣ ، والمقتضب : ١٠٥/٣ ، ٣٣٣/٤ والمحتسب لابن جني ١٨٤/٢ ، وأمالي ابن الشجري : ٣٦/١ ، ٣٠١ والإنصاف لابن الأنباري : ٢٤٣ ، وخزانة الأدب : ٢٢٣/١ ، وديوان جرير : ٥٥٣ .

فلما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب[1] لأحد الأسباب مرّة ، وينفى عنه مرّة ، بنظرين مختلفين . على ذلك قول الشاعر :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقا حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل [مرة][2] ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين .

ويقال : هذا الخشب قَطَعْتَه [أنت][3] لم يقطعه السكين ، بمعنى [أنه جعل][4] تأثيره لك لا للسكين . ويقال : قطعه السكين لم تقطعه .

وبتصور هذا الفصل يزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوباً إلى الله تعالى ، منفياً عن العبد ، ومنسوباً إلى العبد تارة منفياً عن الله تعالى ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾[7] .

وبيان ذلك ان [الأفعال التي نباشرها][8] يعتبر على وجهين : [احدهما][9] بالإضافة إلى مباشره ، فيقال : فعل فلان كذا ، ولم يفعل كذا . والثاني : في الاعتبار بميسّره والمقدّر له والموفق لسبيله ، وانه لولا سوابق نعمه لما وجد ذلك ، بل ما وجد [شيء من][10] أفعالنا وذواتنا ، وأنه

---

(١) في « ت » : يثبت .
(٢) زيادة من « ت » .
(٣) ساقطة من « ت » .
(٤) ساقطة من « ت » وفي « ع » : أنا . وهو تحريف . والصواب ما أثبتناه .
(٥) و (٦) الأنفال : ١٧ .
(٧) النساء : ٧٩ .
(٨) في « ع » : الفعل الذي نباشره .
(٩) ساقط من « ت » .
(١٠) في « ت » : في .

تعالى السبب الأول الذي يصح ارتفاع ما سواه ، ولا يصح ارتفاعه ــ تعالى علوّاً كبيراً[1] .

فإذاً : النظر إلى أفعالنا وإلى من يسَّرها لنا نظر ان :

ــ نظر من أفعالنا إلى فعل الباري ، فيتوصل بها إلى معرفته .

ــ ونظر من إنعامه علينا بقوانا وتسهيل سبيلنا إلى إيجاد أفعالنا .

وهذا الثاني لا سبيل إلى تصوره لمن لم يتقوّ[2] في الأول ، ولم يجعله ذريعة للوصول[3] إلى هذا .

وبهذا السبيل دعا الناس إلى الإيمان فقال : « آمنوا بالله »[4] « وأما من آمن وعمل صالحاً »[5] « وأن ليس للانسان إلّا ما سعى »[6] .

فلما نبهّهم[7] عرّفهم أن ذلك كله بتوفيقه ، فقال : ﴿ قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله

---

(١) ذكر المؤلف في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ص : ٢٢٤ وما قبلها ما جاء في هذا الفصل وزاد عليه بعض الأمثلة بعد قوله : « ويقال : قطعه السكين لم تقطعه » فقال :
« وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه ، فنسب إلى كل ذلك . وقال : « وأضله الله » لما كان تعالى هو السبب الأول في وجوده ووجود الآلة ، وإن لم يكن تعالى هو الداعي إلى الضلال . وأضلته نفسه لما تركت الاحتراز . وهذا فصل من تأمله لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ إلى المعنى ، بل ينظر في مثل هذا من المعنى إلى اللفظ . واعلم أنه من أجل هذا الذي قدمناه قال قوم من المخلصين : لا شيء من الأفعال فاعله واحد في الحقيقة إلا الله عز وجل فإن فعله ــ عز وجل ــ يستغني عن الزمان والمكان والمادة ومثال يحتذيه ، ومن عداه من الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الإبداع إلى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا . و يصح أن ينسب فعل الله تعالى إلى كا ما تقدم ذكره » .

(٢) في « ع » : يوفق .

(٣) في « ع » : إلى الوصول .

(٤) الحديد : ٧ .

(٥) الكهف : ٨٨ وتمامها « فله جزاءً الحسنى » .

(٦) النجم : ٣٩ .

(٧) في « ع » : نبأهم .

يمنّ عليكم أن هداكم ﴾[1] **وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾**[2]

فلما علم تعالى أن قد صار لهم قوّة يمكنهم أن ينظروا من آلائه[3] إلى أفعالهم ، قال تعالى : **﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾**[4] [وقال][5] : **﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾**[6] فأضاف أفعالهم إلى نفسه عند تناهي معارفهم بخلاف ما فعل في الأول .

فإذا تقررت[7] هذه الجملة علم انه لا فاعل في الحقيقة منفرداً غير الله تعالى ، إذ كل فاعل يحتاج إلى معاون على ما تقدم البيان فيها ، والله تعالى : كُلُّ أفعاله[8] إبداع لا في مادة ولا من شيء ولا على مثال ولا في زمان ولا في مكان ، ولا بآلة ولا بمرشد ومعين . فهو الفاعل الحقيقي وما سواه فاعل على ضرب من التوسع . وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين [على][9] ان الأفعال كلها بمشيئة الله وإرادته ، ومن جهته . وأطلقوا على « الله » لفظ « الشيء » كما يطلق على غيره بنظرين مختلفين : فإن بعض الناس قد ذكر أن « الشيء » في الأصل مصدر « شاء » فإذا استعمل فيه تعالى فبمعنى « الشائي » وإذا استعمل في غيره فبمعنى « المُشاء »[10] وذلك في اللغة مستمر ، لأن المصدر يطلق على الفاعل والمفعول جميعاً . قال : وتصور هذه الحقيقة من لفظة « الشيء » مما ينبهنا أن هذه اللغة من جهة الله تعالى .

---

(١) الحجرات : ١٧ .
(٢) النور : ٤٠ .
(٣) في « ت » : الآية .
(٤) و (٥) الأنفال : ١٧ .
(٦) زيادة من « ت » .
(٧) في « ت » : تفردت . وهو تصحيف .
(٨) في « ت » : فأفعاله .
(٩) ساقطة من « ت » .
(١٠) في « ت » : « المشي » .

فصل في بيان الألفاظ التي تجيء متنافية [في الظاهر][1]

كثيراً ما يجيء ألفاظ[2] في الظاهر كالمتنافي عند من لم يتدرب بالبراهين العقلية والعلوم الحقيقية ، وربما يغالط الملحد [بألفاظ القرآن][3] العَجَزَةَ فيشككهم مثل أن يقول : قد ثبت [في بداهة][4] العقول أن النفي والاثبات في الخبر الواحد إذا اجتمعا لابد من صدق أحدهما وكذب الآخر ، نحو أن يقال : زيد خارج ، زيد ليس بخارج .

وقد رأينا في القرآن أخباراً متنافية ، فلابد من أن يكون أحدهما صدقاً ، والآخر كذباً ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾[5] مع قوله : ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[6] ، وقوله إخباراً عن الكفار أنهم يقولون : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾[7] مع قوله تعالى : ﴿ **ولا يكتمون الله حديثاً** ﴾[8] ، وقوله تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون** ﴾[9] مع قوله تعالى : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾[10] وقوله تعالى : ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً** ﴾[11] مع قوله تعالى : ﴿ **ورأى**

---

(١) ساقط من « ت » .
(٢) في « ع » : الألفاظ .
(٣) في « ع » : بألفاظ من القرآن في نحو ذلك .
(٤) في « ع » : من بداية .
(٥) الصافات : ٢٧ ، والطور : ٢٥ .
(٦) المؤمنون : ١٠١ .
(٧) الأنعام : ٢٣ .
(٨) النساء : ٤٢ .
(٩) المرسلات : ٣٥ .
(١٠) الصافات : ٢٧ ، الطور : ٢٥ .
(١١) الاسراء : ٩٧ .

المجرمون النار ﴾[12] وقوله تعالى :[13] ﴿ **دعوا هنالك ثبوراً** ﴾[14] وقوله[15] : ﴿ **سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً** ﴾[16] . وقوله تعالى : ﴿ **فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾[17] مع قوله تعالى : ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾[18] وقوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلّا واردها** ﴾[19] مع قوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[20] .

وقبل الجواب عن ذلك يجب ان نقدم[21] مقدمة تزول الشبهة بها عن ذلك وعن أمثاله[22]، ويكتفي بتصورها عن آحاد هذه [الأسئلة][23] ونظائرها ، وهو أن الخبرين اللذين أحدهما نفي والآخر إثبات إنما يتناقضان إذا استويا في الخبر والمخبر عنه ، وفي المتعلق بهما ، وفي الزمان والمكان ، وفي الحقيقة والمجاز .

فأما[24] إذا اختلفا في واحد من ذلك فليسا بمتناقضين نحو أن يقال : زيد مالك . زيد ليس بمالك . وتريد بأحد الزيدين غير الآخر ، أو تريد بأحد المالكين المبني [من][25] الملك ، وبالآخر

---

(١٢) الكهف : ٥٣ .
(١٣) ساقط من « ت » .
(١٤) الفرقان : ١٣ .
(١٥) في « ع » : مع قوله .
(١٦) الفرقان : ١٢ .
(١٧) الحجر : ٩٢ — ٩٣ .
(١٨) الرحمن : ٣٩ .
(١٩) مريم : ٧١ .
(٢٠) الأنبياء : ١٠١ .
(٢١) في « ت » : يقدم .
(٢٢) في « ع » : وأمثالها .
(٢٣) في « ت » : الأسؤله . وهو خطأ ناسخ .
(٢٤) في « ع » : أما .
(٢٥) زيادة من « ع » .

المبني من الملك الذي هو [الشَّد][1] أو تريد بأحدهما : المالك في الحال وبالآخر[2] أنه ممن يصح ملكه كالعبد . أو تعني بأحدهما بأصبهان والآخر ببغداد،أو تعني بأحدهما في زمان [وبالآخر في زمان][3] آخر غير الزمان الأول . فكل هذا لا تناقض [فيه][4] ، فإن المراد بأحد الخبرين غير المراد بالآخر [5] .

وعلى ذلك كل ما يوصف بوصفين متضادين على نظرين[6] مختلفين ، نحو من يقول في « الرحى » و « البكرة الدائرة على مركزها » : إنها سائرة أو منتقلة لاعتبار بعض أجزائها ببعض . ويقول آخر : إنها غير سائرة أو غير منتقلة اعتباراً[7] لجملة[8] أجزائها وأنها لا تتبدل[9] عن المركز . فإن ذلك لاتضاد بينهما .

وكذلك إذا قيل : فلان ليّن العود ـــ ويراد به في السخاء ـــ وقول آخر[10]: ليس بليّن العود ـــ ويراد به في الشجاعة ـ .

وعلى ذلك ما يختلف به الحال في الإضافة إلى حالين أو إلى نفسين ، نحو أن يقال : المال صالح ـــ اعتباراً بحالٍ ما أو بذات ما ، ويقول الآخر : إن المال ليس بصالح ـــ اعتباراً بحال أخرى أو بذات أخرى .

---

(١) في « ت » السد ، وهو خطأ ناسخ ، وقد قال الراغب في مفرداته : « ... وملكت العجين شددت عجنه ، وحائط ليس له مِلاك ، أي : تماسك » .

(٢) في « ت » : والاخر .

(٣) ساقط من « ت » .

(٤) في « ت » : بينهما .

(٥) من الكتب النافعة في هذا والتي فيها توجيه لأكثر الآيات التي استشهد بها المؤلف كتاب « دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب » للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

(٦) في « ع » : نظيرين .

(٧) في « ع » : اعتبار .

(٨) في « ع » : بجملة .

(٩) في « ع » : تبدل .

(١٠) في « ع » : قول مع قول آخر .

وعلى ذلك الحكم في كل ماله مبدأ وغاية ، مثل « الإيمان ، والشرك ، والتوكل » وذاك أن « الإيمان » لما كان [[1]] مبدؤه : إظهار الشهادتين ــ كما قال عليه السلام في الجارية التي أشارت إلى السماء : « إنها مؤمنة »[2] وكان غايته ما قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾[3] الآية ــ صح أن يقال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[4] وأن يقال : « يزني الزاني وهو مؤمن » .

وعلى ذلك كل ما هو مركب من شيئين ، أو كان له مبدأ وغاية كما تقدم صَدَق فيه أربعة أخبار بأربع نظرات ، نحو أن يقال : السكنجبين حلو ، السكنجبين حامض [السكنجبين حلو حامض][5] السكنجبين لا حلو ولا حامض .

ومتى[6] تصورت هذه المقدمة سهل الجواب عن هذه الآيات ، إذ كل ذلك راجع إلى أحد الأسباب المذكورة[7] من المخالفات .

---

(١) زيادة من « ع » .

(٢) الحديث أخرجه ابو داود في « الايمان والنذور » باب « الرقبة المؤمنة » ورقمه ٣٢٨٤ ونصه : « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلاً أتى النبي ﷺ وسلم بجارية سوداء ، فقال : يارسول الله : إن عليَّ رقبة مؤمنة ، فقال لها رسول الله ، أين الله ؟ فأشارت إلى السماء بإصبعها . فقال لها : فمن أنا ؟ فأشارت إلى النبي ﷺ ــ وإلى السماء تعني : أنت رسول الله . قال : اعتقها فإنها مؤمنة » وانظره في جامع الأصول : ٢٣١/١ .

(٣) الأنفال : ٢ .

(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن تحت رقم ٣٩٣٦ ... عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا ينتهب نُهْبَةً ، يرفع الناسُ إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » . وللحديث روايات عند البخاري : د/٨٦ في المظالم وعند مسلم رقم ٥٧ في الإيمان وعند أبي داود رقم ٤٦٨٩ وعند الترمذي رقم ٢٦٢٧ في الإيمان وعند النسائي : ٦٤/٨ في السارق .

(٥) ساقط من « ت » .

(٦) في « ع » : متى .

(٧) في « ع » : المذكورات .

فصل في بيان انطواء كلام الله تعالى على الحِكَم كُلّها عِلْمِيًّا وعَمَلِيًّا

كتاب الله تعالى منطو على كل ذلك بدلالة قوله تعالى : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾[1] وقوله : ﴿ **ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء** ﴾[2] وقوله : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾[4] لكن ليس يظهر ذلك إلاّ للراسخين في العلم .

ولكونه منطوياً على الحكم كلها قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[5] : إنه عني به تفسير القرآن . ثم منازل العلماء تتفاوت في تفهمه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[6] .

وأعظم ما يقصر تفهم الأكثرين عن إدراك حقائقه شيئان :

أحدهما : راجع إلى اللفظ . والآخر : راجع إلى المعنى .

فالراجع إلى اللفظ شيئان :

أحدهما : ما اختص به اللغة العربية من الإيجاز والحذف ، والاستعارات والإشارات اللطيفة ، واللمحات الغامضة مما ليس في سوى هذه اللغة .

---

(١) الآية : ١٢ من سورة يس والظاهر أن الامام المبين لا يراد به ــ هنا ــ : القرآن ، كما يفهم من كلام الراغب وسياق الآية في سورة يس : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ فالإمام المبين : إما هو صحائف الأعمال ، وإما اللوح المحفوظ ، كما ذهب إليه الراغب نفسه في مفرداته حيث قال : وقوله تعالى : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ : فقد قيل : إشارة إلى اللوح المحفوظ .

(٢) يوسف : ١١١ .

(٣) الأنعام : ٣٨ .

(٤) النحل : ٨٩ .

(٥) البقرة : ٢٦٩ .

(٦) النساء : ٨٣

والآخر : ما[1] يوجد في القرآن خاصة من الإيجازات والحذف مما ليس في غيره من الكلام ولما فيه من اللفظ [اليسير][2] المنطوي على المعنى الكثير قال ــ عليه السلام ـ: « أوتيت جوامع الكلم »[3] . فمن مثال الإيجاز قوله تعالى في وصف ارتفاع الأسباب المكروهة عن أوليائه : ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[4] فنفى بذلك كل تنغيص[5] إذا كان جميعه في حصول مكروه وفوت محبوب . وقد نفاهما بذلك . وقال في فاكهة أهل الجنة : ﴿ **لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾[6] فنفى بذلك جميع الآفات العارضة لمطاعم الدنيا . وقال في صفة خمرهم : ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾[7] ، فنفى بذلك كل مكروه يعرض فيها .

وأخبر بكل من أمر فرعون وآله بألفاظ يسيرة ، وذلك في قوله : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين** ﴾[8] فذكر فيه ما قيل إنه ينطوي عليه[9] أوراق وجلود من السِّفْر .

ومن عجيب ما فيه أن كل ما علم [بالسامع استغناء عنه من الألفاظ][10] ترك ذكره وتخطى إلى ما بعده نحو قوله تعالى : ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر فانفلق** ﴾[11] فترك ما كان من موسى ، ثم ترك ما كان منه ومن أصحابه في دخولهم البحر ، وتخطى[12] إلى ذكر ما صنع بهم .

---

(١) في « ع » : مما .

(٢) ساقط من « ت » .

(٣) هذه رواية مسلم : شرح النووي : ٦/٥ كما ذكر روايات أخرى بلفظ « أعطيت » و « بعثت » : ٥/٥ وكذلك رواه البخاري : ٩٠/٦ في الجهاد ، وفي التعبير ، والترمذي في السير برقم ١٥٥٣ ، والنسائي في الجهاد : ٣/٦ و ٤

(٤) يونس : ٦٢ .

(٥) في « ع » : تنقيص .

(٦) الواقعة : ٣٣ .

(٧) الصافات : ٤٧ .

(٨) الدخان : ٢٥ ــ ٢٧ .

(٩) في « ع » : عليه من .

(١٠) في « ع » : السامع واستغنى عنه من ألفاظ .

(١١) الشعراء : ٦٣ . (١٢) في « ت » : يخطي .

وأما الراجع إلى المعنى : فذكره تعالى ــ أصولاً منطوية على فروع بعضها بيّنه النبي ــ عليه السلام ــ وبعضها فوّض استنباطه إلى الراسخين في العلم تشريفاً لهم وتعظيماً لمحلهم ، لكي يقرب[13] منزلة علماء هذه الأمة[مِن][14] منزلة الأنبياء في استنباطهم بعض الأحكام ، ولاختصاص هذه الأمة بهذه المنزلة الشريفة قال عليه السلام : « كادت أمتي تكون أنبياء »[15] وعلى ذلك قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾[16] ــ الآية ــ وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »[17] فجعلهم في ذلك بمنزلة الأنبياء .

(١٣) في « ع » : تقرب .

(١٤) زيادة من « ع » .

(١٥) هذه الجملة جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في مسنده : ١/٢٩٦ وقد جاء قبلها : « ...فإذا أراد الله عز وجل أن يصدع بين خلقه نادى مناد : أين أحمد وأمته ؟ فنحن الآخرون الأولون ، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غراً محجلين من أثر الطهور . وتقول الأمم : « كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها » ..

(١٦) البقرة : ١٤٣ .

(١٧) آل عمران : ١١٠ .

فصـــل في انطواء القرآن على البراهين والأدلة

ما من برهان ودلالة[1] وتقسيم وتحديد [ينبيء عن][2] كليات المعلومات العقلية والسمعية ، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب ـــ دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين ـــ لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قال[3] : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾[4] ـــ الآية .

والثاني : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليّ[5] من الكلام . فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط[6] إلى الأغمض الذي لا يعرفه [إلا][7] الأقلّون ما لم يكن ملغزاً . فأخرج تعالى مخاطباته في محاجّة خلقه في أجلى صورة تشتمل على أدقّ دقيق لتفهم العامة من جليّها[8] ما يقنعهم ويلزمهم الحجة . وتفهم[9] الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الحكماء . وعلى هذا النحو [قال عليه الصلاة والسلام][10] : « إن لكل آية ظهراً وبطناً . ولكل حرف حدّاً ومطلعاً »[11] لا على ما ذهب إليه الباطنية .

---

(١) في « ع » : ولا دلالة .
(٢) في « ع » : مبني على .
(٣) في « ع » : قاله .
(٤) إبراهيم : ٤ .
(٥) في « ت » : الجليل .
(٦) في « ت » : تنحط .
(٧) ساقط من « ت » .
(٨) في « ت » : جليلها .
(٩) في « ع » : ويفهم .
(١٠) ساقط من « ت » .
(١١) أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » . وأخرج الديلمي من رواية عبدالرحمن بن عون مرفوعاً : « القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يُحَاجُّ العباد » ـــ الإتقان للسيوطي : ١٩٦/٤ .

ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر . ولذلك إذا ذكر [تعالى][12] حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها[13] إلى أولي العقل ، ومرة إلى أولي العلم ، ومرّة إلى السامعين ، ومرّةً إلى المفكرين ، ومرّة إلى المتذكرين تنبيهاً [على][14] أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها . وذلك نحو قوله : ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[15] وغيرها من الآيات .

(١٢) ساقط من « ت » .
(١٣) في « ت » : بإضافته .
(١٤) ساقط من « ت » .
(١٥) الرعد : ٤ ، والنحل : ١٢ ، ٦٧ .

فصل في الأحكام التي عليها مدار الأديان [وما يجوز فيه النسخ][1] وما لا يجوز فيه من الأحكام

الأحكام التي تشتمل عليها الشرائع ستة : الاعتقادات ، والعبادات ، والمشتهيات ، والمعاملات ، والمزاجر[2] ، والآداب الخلقية .

فالاعتقادات : خمسة : إثبات وجود الباري ــ جل ثناؤه ــ بصفاته ، وإثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه ، والكتاب ، والرسل ، والمعاد . وقد انطوى على ذلك قوله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر** ﴾[3] الآية .

وأما العبادات فثمانية : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والاعتكاف ، والقرابين والكفارات .

والمشتهيات أربع : المأكولات ، والمشروبات ، والمنكوحات ، والملبوسات .

والمعاملات أربع : المعاوضات ــ كالبيع والإجارة وما يجري مجراهما ــ والمخاصمات ــ كالدعاوى والبينات ، والأمانات ــ كالودائع والعواري ــ والتركات ــ كالوصايا والمواريث .

والمزاجر خمس : مزجرة عن فوات الأرواح حفظاً للنفوس ــ كالقصاص والدية ، ومزجرة لحفظ الأعراض ــ كحد القذف والتفسّق[4] ، ومزجرة لحفظ الأنساب ــ كالجلد والرجم ــ ومزجرة لحفظ الأموال ــ كالقطع والصّلب ــ ومزجرة لحماية البيضة ــ كالقتل للردة[5] وقتال البغاة .

وأما الآداب الخلقية فثلاثة :

ــ ما يختص به الإنسان في نفسه وإصلاح أخلاقه : كالعلم ، والحلم ، والسخاء ، والعفّة ،

---

(١) ساقط من « ت » .

(٢) في « ع » : والزاجرات .

(٣) النساء : ١٣٦ .

(٤) في « ع » : الفسق .

(٥) في « ع » : للمرتد .

والشجاعة ، والوفاء ، والتواضع .

ــ وما يختص به في معاشرة ذويه ومختصيه : كبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحفظ الجار ، ورعاية الحقوق ، ومواساة أهل الفقر ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف .

ــ وما يختص به أولو الأمر من سياسة الرعية .

والفرق بين الشرعيات والآداب الخلقية :

ــ ان الشرعيات : محدودة الكميات والكيفيات ، ولتارك عامتها عقوبة محدودة .

ــ وأما الآداب الخلقية : فغير محدودة الكميات والكيفيات ، وليس لتاركها عقوبة ، بل هي موكولة إلى ذوي الأنفس الزكية ، « وما يعقلها إلّا العالمون »[1] . وعلى جمهور ذلك دلّ قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إياه** ﴾[2] إلى قوله : [**ذلك مما أوحي إليك ربك من الحكمة** ﴾[3] .

وأشرف هذه الأنواع [الستة][4] : الاعتقادات ، لأنه في حيّز العلم ، والباقيات في حيّز العمل . والعلم : هو المبدأ . والعمل تمامه[5] . ولا يكون تمام بلا مبدأ . وقد يكون مبدأ بلا تمام . ولأن العلم أصل ، والعمل فرع ، ولا ثبات للفرع إلا بالأصل كما لا [كمال][6] للأصل إلا بالفرع .

ومتفق عند كل أحد أن الاعتقاد مقدم على العمل ، حتى إنهم يتباينون بما يقع من الاختلاف في الاعتقادات دون الأعمال . [وتصير][7] بفساد الاعتقاد المحاسن كلها مقابح . ثم يتبعه أمر

---

(١) استشهاد بالآية القرآنية : ٤٣/من سورة العنكبوت : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

(٢) و (٣) الآيات : ٢٣ ــ ٣٩ من سورة الاسراء .

(٤) في « ت » و « ع » : الخمسة وعلى هامش « ت » : الستة وهو المطابق لما سبق أن ذكره .

(٥) في « ع » : تمام .

(٦) في « ت » : زكاً .

(٧) في « ت » : ويصير .

العبادة ، فإن المخل بالصلاة والصيام والاغتسال من الجنابة عند المسلمين أعظم من مرتكب الظلم ، وكذا ترك السبت عند اليهود ، وترك العبادة عند النصارى ، وترك الزمزمة عند المجوس أعظم من ظلم العباد ، فإن العبادة هي المحافظة على [حق الله ، والورع عن ظلم الناس بالمحافظة على][1] أحكامه . والعابد أعلى من الوَرِع .

وبعد ذلك يجب أن نبين ما يجوز فيه النسخ ومالا يجوز .

قد[2] علم أن النسخ لا يصح إلّا في التعبد الذي هو الأمر والنهي دون الأخبار فلا يصح ذلك في الاعتقادات المذكورة إذا كان ذلك أشياء أمرنا أن نعرفها على ما هي بها[3] ، فنعتقدها بحسب ما هي عليه ، وذلك لا يتغير ، وما كان من الآداب الخلقية فإنما هي عقليات ظاهرة لا يأتي شرع بخلاف مقتضاها . وأما العبادات ، والمعاملات ، والمزاجر [فلا يصح][4] في أصولها النسخ ، وإنما يصح في فروعها ، وذاك أنه محال أن تنفك[5] شريعة من الشرائع عن عبادة الله تعالى واقعة في حيز البدن ، وهي مثل الصلاة . وعبادة في حيز المال وهي كالزكاة ، وعبادة في [حيز][6] إمساك الشهوة كالصوم . وأن [تنفك عن][7] **معاملات تحثهم على العدالة ، وتمنعهم عن التهارج ، ومن[8] مزاجر تزجرهم عن استباحة نفوس الغير وأعراضهم وأموالهم وأنسابهم .**

وأما هيآتها [وأشكالها] وأزمنتها وأعدادها ، فهي فروعها التي لم تزل [تعرض النسخ][9] على حسب ما عرف الله تعالى من مصلحة كل قوم .

ومما يدل[10] على أنه لا نسخ في عامة أصول هذه الأشياء ما ورد من النصوص على ذلك في

---

(١) زيادة
(٢) في « ع » : به .
(٣) في « ع » : فمما لا يصح .
(٤) في « ت » : ينفك .
(٥) ساقط من « ع » .
(٦) في « ت » : ينفك عن من .
(٧) في « ع » : وعن .
(٨) زيادة من « ع » .
(٩) في « ع » : بعرض ولعل الصواب : تعرّض للنسخ .
(١٠) في « ع » : يدلك .

القرآن نحو قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **وما أمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[2] الآية . وقال حكاية عن عيسى : ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً** ﴾[3] . وقال في الزكاة : ﴿ **وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة** ﴾[4] وقال في القبله[5]: ﴿ **ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه** ﴾[6] وقال في الصوم : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾[7] ، وقال في الاعتكاف : ﴿ **وطهر بيتي للطائفين والعاكفين** ﴾[8] وقال في القرابين : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً** ﴾[9] وحكى عن اليهود ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾[10] وفي الجهاد ﴿ **وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير** ﴾[11] وقال في القصاص : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ﴾[12] وقال في المطاعم والمشارب : ﴿ **كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل** ﴾[13] الآية ــ وقال : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم**

---

(١) الشورى : ١٣ .

(٢) القيّمة : ٥ .

(٣) مريم : ٣١ .

(٤) فصلت : ٦ ــ ٧ .

(٥) لم يذكر المؤلف ما قيل في القبلة ، ولعل في الكلام سقطاً ، والمناسب أن يقال : "وقال في القبلة ﴿ **وما بعضهم بتابع قبلة بعض** ﴾ ــ البقرة : ١٤٥ ــ وقال في النسك " وقد قال الراغب في مفرداته ــ مادة : نسك ـ : « النسك : العبادة والناسك : العابد ، واختص بأعمال الحج ، والمناسك : مواقف النسك وأعمالها . والنسيكة مختصة بالذبيحة قال : « ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » « فإذا قضيتم مناسككم » ــ « منسكاً هم ناسكوه » .

(٦) الحج : ٣٤ .

(٧) البقرة : ١٨٣ .

(٨) الحج : ٢٦ .

(٩) المائدة : ٢٧ .

(١٠) آل عمران : ١٨٣ .

(١١) آل عمران : ١٤٦ .

(١٢) المائدة : ٤٥ .

(١٣) آل عمران : ٩٣ .

طيبات أحلت لهم ﴾[1] وقال في المزاجر : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾**[2] وقال في أخرى : ﴿ **لهدمت صوامع وبيع ﴾**[3] وقال : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾**[4].

وذكر في الآداب وصايا لقمان لابنه وهو يعظه : ﴿ **ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾**[5] إلى غير ذلك من الآيات . وآكد من ذلك كله : ﴿ **قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلّى ﴾**[6] إلى قوله : ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾**[7] .

وقال في الفروع[8] : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾**[9] ، فإن قيل : إن المزاجر ليست في كل شريعة ، ألا ترى أنه قيل : لم تكن[10] في النصرانية ، لما روي عن عيسى عليه السلام : « إذا لطم أحدكم على أحد جانبيه فليعرض عليه الجانب الآخر » وقال : « ادع الناس إلى الدين بالمقال دون القتال » ، قيل : إن المزاجر كما تكون[11] بالقتال قد تكون[12] بالمقال ، فلابد أن يكون لهم مزاجر . ثم إن مزاجرهم قد وردت[13] بها التوراة ، فاستغنى بها عيسى عليه السلام عن تبيينها . وما ذكر من تمكين الجانب الآخر من اللطم ، فحثٌّ منه على العفو واحتمال المكروه .

---

(١) النساء : ١٦٠ .
(٢) البقرة : ٢٥١ .
(٣) الحج : ٤٠ .
(٤) الاسراء : ٣٢ .
(٥) لقمان : ١٨
(٦) الأعلى : ١٤ ــ ١٥ .
(٧) الأعلى : ١٨ ــ ١٩ .
(٨) في « ع » : الردع . وهو تحريف .
(٩) المائدة : ٤٨ .
(١٠) في « ت » : يكن .
(١١) في « ت » : يكون .
(١٢) في « ت » : يكون .
(١٣) في « ت » : ورد به .

فصل فيما يحتاج إليه في التفسير من الفرق بين النسخ والتخصيص

النسخ ، والمسخ يتقاربان ـــ كذا قال الخليل ـــ إلا أن « المسخ » في نقل الأعيان ، والنسخ في نقل الصور ، نحو نسخ الكتاب ، وهو نقل صورة الكتابة إلى غيره من غير إبطال الرسم[1] الأول . ونسخ الظِّلُّ الشمسَ إذا أزالها[2] .

وحقيقة النسخ : إزالة مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع آخر مع التراخي .

والفرق بينه وبين التخصيص : أن التخصيص قد يكون في الخبر ، والنسخ لا يكون فيه .

والتخصيص : إخراج ما لم يرد بالخطاب من الأعيان والمعاني والأمكنة .

والنسخ : إخراج ما لم يرد من الحكم في بعض الأزمنة .

والتخصيص في الأكثر مقرون بالمخصوص لفظاً أو تقديراً والنسخ لا يكون إلا متأخراً عن المنسوخ ، ومتى اقترن به سمّي تخصيصاً . [وكأن النسخ في الحقيقة ضرب][3] من التخصيص

---

(١) في « ع » : لرسم

(٢) قال مكي بن أبي طالب في كتابه « الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه » : النسخ يأتي في كلام العرب على ثلاثة أوجه : الأول : أن يكون مأخوذاً من قول العرب : « نسخت الكتاب » : إذا نقلت ما فيه إلى كتاب آخر ، فهذا لم يغير المنسوخ منه ، إنما صار له نظيراً مثله في لفظه ومعناه ، وهما باقيان . وهذا المعنى ليس من النسخ الذي قصدنا إلى بيانه إذ ليس في القرآن آية ناسخة لآية أخرى كلاهما بلفظ واحد ومعنى واحد وهما باقيتان . وهذا لا معنى لدخوله فيما قصدنا إلى بيانه . وقد غلط في هذا جماعة ، وجعلوا النسخ الذي وقع في القرآن مأخوذاً من هذا المعنى ، وهو وَهْم ، وقد انتحله النحاس ... وانظر تفاصيل رد ذلك في كتاب الإيضاح : ٤١ ـــ ٤٢ .

وقال مكي في كتاب الإيضاح ٤٣ : « والثاني من معاني النسخ : أن يكون مأخوذاً من قول العرب : نسخت الشمس الظّلّ إذا أزالته وحلّت محله ، وهذا المعنى هو الذي عليه الجمهور في منسوخ القرآن وناسخه ...» .

وقال مكي ص/٤٦ : الثالث من معاني النسخ : أن يكون مأخوذاً من قول العرب : نسخت الريح الآثار ، إذا أزالتها فلم يبق منها عوض ، ولا حلّت الريح محل الآثار ، بل زالا جميعاً ...» .

(٣) في « ع » : وكان النسخ في الحقيقة ضرباً .

إلّا أنهما في المتعارف[1] مختلفان .

وقد تصور عدة ــ ممن صنفوا في النسخ ــ بعضَ ما هو بيان للمجمل أو تخصيص للعام[2] بصورة الناسخ[3] وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً** ﴾[4] قال بعضهم : نسخ ذلك بقوله : ﴿ **من كان غنيّاً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾[5] وهذا بيان ما ليس بظلم من أكل مالهم . ونحو قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** ﴾[6] قال : فلم تحرم . ثم قال : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب** ﴾[7] ــ الآية ــ وهذا أيضاً بيان الأول ،[8] وذاك أن ما كان مضرته

---

(١) في « ت » : التعارف

(٢) في ت : لعام .

(٣) انظر ــ في هذا ــ البابين اللّذين عقدهما مكي في كتاب « الايضاح » : الاول : باب الفرق بين النسخ والتخصيص والاستثناء . والثاني ــ بعنوان ــ باب بيان النسخ والتخصيص وتمثيله من ص : ٧٦ ــ ٨٦

(٤) كلام الراغب ــ هنا ــ يفيد أن قوله : « **إن الذين يأكلون** » منسوخ بقوله « **ومن كان غنياً فليستعفف** »بينما الوارد في كتاب الإيضاح على النقيض من ذلك حيث يقول مكي ص ــ ١٧٥ ــ ١٧٦ ــ : قوله تعالى : « **ومن كان غنياً فليأكل بالمعروف** » : أباحت هذه الآية في ظاهر نصها للوصي إذا كان فقيراً أن يأكل من مال يتيمه بالمعروف وهي عندابن عباس منسوخه بقوله تعالى« **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** »ــ الآية ــ وقاله زيدبن أسلم ــ ، وقيل : نسخت بقوله « **ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** » ــ البقرة ١٨٨ » وقال أهل العراق : لايأكل الوصي من مال يتيمه شيئاً إلا أن يسافر من أجله فله أن يتقوت من ماله ولا يقتني . وقال جماعة من العلماء : الآية محكمة غير منسوخة ومعنى« **بالمعروف** » قرضاً يؤديه إذا أيسر . وقوله : « **فأشهدوا عليهم** »قيل معناه : فما استقرضتم من أموالهم ــ وهذا القول مروي عن عمر وابن عباس والشعبي وابن جبير ــ وهو قول مختار حسن .

ــ وانظر بقيه الاقوال في الإيضاح : ١٧٥ ــ ١٧٦

(٥) النساء : ٦

(٦) البقرة : ٢١٩

(٧) المائدة : ٩٠

(٨) في « ع » : للاول

أكثر من منفعته [1] ، فالعقل بالجملة يقتضي تجنبه ، لكن لما كان [ذلك] [2] غير صريح أكّده بالآية الأخرى [3] .

---

(١) في « ع » نفعه

(٢) زيادة من « ع »

(٣) قال مكي في الإيضاح : — قوله تعالى « **يسألونك عن الخمر والميسر** » الآية — : أكثر العلماء على أنها ناسخة لما كان مباحاً من شرب الخمر لأنه تعالى أخبرنا أن في الخمر إثماً وأخبرنا أن الإثم محرم بقوله تعالى « **قل إنما حرّم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق** »فنص على أن الإثم محرّم وأخبر أن في شرب الخمر إثماً ، فهي محرمة بالنص الظاهر الذي لا إشكال فيه — وماحرم : كثيره وقليله حرام — كلحم الخنزير والميته والدم . وسورة البقرة مدنية فلا يُعترض على مافيها بما نزل في الأنعام المكية في قوله تعالى « **قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون** ... » لأن هذا تحريم نزل بمكة ، والخمر نزل تحريمها بالمدينة وزادنا الله تأكيداً في تحريم الخمر بقوله « **فهل أنتم منتهون** » !! فهذا تهديد ووعيد يدلان على تأكيد التحريم للخمر .. وقال ابن جبير : لما نزلت « **قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس** » : كره الخمر قوم للإثم وشربها قوم للمنافع حتى نزل : « **لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى** » فتركوها عند الصلاة حتى نزلت « **فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » فحرمت . فهذا يدل على أن آيه البقرة منسوخة بآية المائدة . والمائدة نزلت بعد البقرة بلا شك ... »

ومن التخصيص الذي يعد نسخاً قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ** ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب** ﴾[1] .

وعلى هذا ما حكي أنه [لما نزل قوله تعالى : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله** ﴾[2] شقّ ذلك على بعض أولي الضرر فنزل قوله تعالى : ﴿ **غير أولي الضرر** ﴾ مقروناً بقوله تعالى : ﴿ **القاعدون من المؤمنين** ﴾ . وهذا القدر يدل على كثير مما ذكروه من أمثال ذلك ﴾[3] .

---

(١) قال مكي في كتاب الإيضاح : ٧٦ ــ ٧٧ :

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾ البقرة : ٢٢١ فَعَمَّ هذا اللفظ تحريم نكاح كل مشركة من كتابية وغيرها ، ثم خصص ذلك بقوله في المائدة : ﴿ **والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ فأحل نكاح الكتابية ، فخرج الكتابيات من عموم آية البقرة ، وبقيت الآية مخصوصة في تحريم نكاح كل مشركة غير كتابية ، فبيّن بالتخصيص الأعيان المحرمات ، ولا يكون هذا نسخاً ، لأن حكم النسخ إزالة الحكم الأول بكليته ، ولأن النسخ إنما هو بيان الزمان الذي انتهى إليه العمل بالفرض المنسوخ ، وليس ذلك في هذا .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : آية المائدة ناسخة لآية البقرة ، وهذا إنما يجوز على أن تكون آية البقرة يراد بها الكتابيات خاصة حُرِّ مْنَ إلى وقت ، ثم نُسخت بآية المائدة في وقت آخر ، فَبيَّن الأزمان بالنسخ ، وذهب الحكم الأول بكليته . والاستثناء والتخصيص يزيلان بعض الحكم الأول . والنسخ يزيل الحكم كله فاعرفه . ويكون تحريم نكاح المشركات من غير أهل الكتاب بالسنة . فكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة أولى من كونها ناسخة لها ، ليكون تحريم نكاح المشركات من غير أهل الكتاب بنص القرآن ، فذلك ظاهر اللفظ » .

(٢) النساء : ٩٤

(٣) ساقط من « ت » .

فصل في أنه هل في القرآن ما لا تعلم الأمة تأويله[1]

اختلفوا في ذلك فذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً[2] ، وإلّا أدّى إلى بطلان فائدة الانتفاع به ، وان لا معنى لإنزاله ، وحملوا قوله تعالى : ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ على أنه عطف على قوله تعالى : ﴿ **لا يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم** ﴾ ، وجعلوا قوله تعالى : ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ في موضع الحال[3] كما قال :

الريح يبكي شجوها والبرق يلمع في غمامه[4]

---

(١) لقد سقط من « ت » هذا الفصل بتمامه وجزء من الفصل الذي يليه .

(٢) وهو قول مجاهد والضحاك ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس ، واختاره النووي وقال في شرح مسلم : « انه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته » . وقال ابن الحاجب : إنه الظاهر .

(٣) وقد استبعد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الحالية هنا وقال : « المعروف في اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها ، فيشكل هنا تقييد هذا العامل الذي هو « يعلم » بهذه الحال التي هي « يقولون آمنا » ، إذ لا وجه لتقييد علم الراسخين بتأويله بقولهم « آمنا به » ، لأن مفهومه أنهم في حال عدم قولهم « آمنا به » لا يعلمون تأويله ، وهو باطل . وهذا الإشكال قوي ، وفيه الدلالة على منع الحالية في جملة « يقولون » ــ على القول بالعطف » ثم يقول الشيخ الأمين : « وإذا كانت جملة « يقولون » لا يصح ان تكون حالاً لما ذكرنا فما وجه إعرابها ــ على القول بأن الواو عاطفة ؟ الجواب ــ والله تعالى أعلم ــ أنها معطوفة بحرف محذوف . والعطف بالحرف المحذوف أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العربية ، والتحقيق جوازه وأنه ليس مختصاً بضرورة الشعر كما زعم بعض علماء العربية ، والدليل على جوازه وقوعه في القرآن وفي كلام العرب . فمن أمثلته في القرآن : « وجوه يومئذ ناعمة » فإنه معطوف بلاشك على قوله « وجوه يومئذ خاشعة » بالحرف المحذوف الذي هو الواو ، ويدل له إثبات الواو في نظيره في سورة القيامة : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة** ﴾ الآية ، وقوله تعالى في « عبس » : ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة** ﴾ عن أضواء البيان : ٢٧٣/١ ــ ٢٧٤ .

(٤) البيت ليزيد بن مفرغ الحميري من قصيدة مطلعها :

أصَرَمْتَ حَبْلَكَ من أُمامَه من بعد أيّام برامَه
فالريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامه

أي البرق يبكي لامعاً . وقوّى ذلك بقراءة ابن مسعود فيما قيل « ويقولون آمنا به » بالواو ــ وعامّة أعيان الصحابة[5] وكثير من المفسّرين بعدهم ، ذهبوا إلى أنه يصح أن يكون في القرآن بعض مالا يعلم تأويله إلّا الله ، قال ابن عباس : « أنزل القرآن على أربعة أوجه :

وجه حلال وحرام لا يسع أحداً جهالته . ووجه يعرفه العرب . ووجه تأويله يعلمه العالمون . ووجه لا يعلم تأويله إلّا الله ، ومن انتحل فيه علماً فقد كذب » .[6] وحمل الآية على أحد وجوه ثلاثة :

أحدها : أنه جعل « التأويل » بمعنى : ما تؤول إليه حقائق الأشياء من كيفياتها وأزمانها وكثير من أحوالها . وقد علمنا أن كثيراً من العبادات والأخبار الاعتقادية كالقيامة والبعث ودابة الأرض لا سبيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلّا**

لهفي على الأمر الذي كانت عواقبه ندامه
وشربت بُرْداً ليتني من بعد برد كنت هامه
هامةً تدعو الصدى بين المُشَقَّر واليمامه

انظر ديوانه : ٢٠٨ بتحقيق الأخ الدكتور عبدالقدوس أبو صالح .

والبيت في أمالي المرتضي : ٣٩/١ ، ٩٦/٢ ، وشرح شواهد الشافية : ٣٦ ، والصاحبي : ٢٠١/وهو غير منسوب فيه والأضداد لابن الأنباري : ٣٧٢ . وانظره في تأويل مشكل القرآن : ٧٤ بتحقيق الأستاذ العلامة : السيد احمد صقر .

(٥) منهم : عمر وابن عباس ــ في اقوى الروايتين ــ وعائشة وعروة ابن الزبير وعمر بن عبدالعزيز وابن مسعود وأبي بن كعب نقله عنهم القرطبي وغيره . ونقله ابن جرير عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس ، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد .

(٦) قال في الإتقان : ١٨٨/٤ ــ ١٨٩ :

« وقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس ، قال : التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى . ثم رواه مرفوعاً بسند ضعيف بلفظ : « أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى . ومن ادّعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب » .

تأويله يوم يأتي تأويله ﴾[1] الآية .

والثاني : أن من ألفاظه ما أمرنا بأن نتلوها تلاوة ، وبها نتعبد دون معرفة تأويلها ، كما تعبدنا بحركات تحصل في كثير من العبادات في الصلاة والحج . وعلى ذلك حمل قوله تعالى : **﴿ وقولوا حطة ﴾**[2] أي : إنهم أمروا بالتفوه بهذه اللفظة .

والثالث : أن كثيراً من الآيات مما اختلف المفسرون فيه ، ففسروه على أوجه كثيرة تحتملها الآية ، ولا يقطع على واحد من الأقوال ، فإن مراد الله تعالى منها غير معلوم لنا مفصلاً ، بحيث يقطع به .

والذين ذهبوا المذهب الثاني قالوا : قد علم أن الآية نزلت إنكاراً على قوم طمعوا في الهجوم على ما لا سبيل لهم إليه ، فأراد تعالى حسم أسباب الخوض فيه ، ومتى كان فيه تشارك لم ينقطع الشغب ، إذ كل يدّعي معرفته . فإن قيل : إن هذا لأقوام معينين فرجع القول إلى ما يقوله الإمامية أن آيات من القرآن لا يعرف تأويلها إلا الإمام ، ويشهد لهذا قوله تعالى : **﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾**[3] .

---

(١) الأعراف : ٥٣ .

(٢) البقرة : ٥٨ .

(٣) النساء : ١٦٢ .

فصل في بيان حكمة الله تعالى في جعله بعض الآيات متشابهاً

سئل بعض العابدين ، فقيل له : ما بال القرآن جعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ؟ وهلّا جعله كله على نمط المحكم حتى كان يكفي الانسان مؤونة النظر الذي قلّ ما سلم متعاطيه من زلّة ؟

وهذه مسألة نسأل عنها في الأحكام أيضاً فنقول : هلّا بينها كلها حتى يستغني عن جهد الرأي الذي لا يؤمن خطؤه ؟ بل سئل عنها في أصل التكليف فيقال : هلّا خوّلنا الله إنعامه بلا مشقة ولا مؤنة حتى كان عطاؤه أهنأ منالاً ؟

فقال : الجواب عن جميع ذلك واحد ، وهو أن الله ــ تعالى ــ خص* الانسان بالفكر[1] والتمييز ، وشرّفه بهما ، حتى قال تعالى : ﴿ **وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[2] وجعله بذلك خليفة في الأرض فقال للملائكة : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ليستخلفنهم في الأرض** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **ويستخلفكم في الأرض** ﴾[5] الآية وقال تعالى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾[6] وكفاه شرفاً بما أعطاه من هذه المنزلة أنه قد يصير لأجلها شريفاً موصوفاً بالعلم والحلم والحكمة ، وكثير من الصفات التي هي من صفاته تعالى ، وإن لم تكن[7] على حدّها وحقيقتها .

ولما خصّه الله[8] تعالى بهذه الفضيلة ــ أعني بالفكر والروية ــ أعطاه كل ما أعطاه من

(*) هنا ينتهي السقط من نسخة « ت » الذي سبق أن أشرنا إليه في أول الفصل السابق .

(١) في « ع » : بالكفر ، وهو تحريف واضح .

(٢) الاسراء : ٧٠ .

(٣) البقرة : ٣٠ .

(٤) النور : ٥٥ .

(٥) الأعراف : ١٢٥

(٦) هود : ٦١ .

(٧) في « ت » : يكن .

(٨) ساقط من « ت » .

المعارف[٩] قاصرة عن درجة الكمال ، ليكمله الانسان بفكرته ، لئلا تتعطل[١٠] فائدتها ، وإلّا كان موجداً لما لا فائدة فيه[١١] ، وذلك شنيع ينزه عنه الباري سبحانه ، وعلى ذلك أحوال كل ما أوجده لنا من المأكولات والمشروبات ، لأنه أوجد لنا أصول الأغذية ، ثم هدانا بما خوّلنا من التمييز إلى تركيبها ، وتناول ما يحتاج[١٢] إليه على الوجه الذي يحتاج[١٣] ، وفي الوقت الذي يحتاج[١٤] .

فإذا ثبت ذلك ، فتأويل كتاب الله تعالى [وأحكام شرائعه][١٥] وسائر معانيه[١٦] قسمان : جَليّ وَخَفِي : فالْجَلِيُّ : ما أدركناه إما بالحاسة ، وإما ببديهة العقل .

وَالْخَفِيُّ[١٧] : ما يتوصل إليه بوساطة أحد هذين ، فسبحان الذي شرف الإنسان بهذه المنزلة السنية لتكون ذريعة له إلى إدراك الحياة الأبدية ، وتحصيل مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ﴾[١٨] .

---

(٩) في « ت » : المعاون . وهو تصحيف .
(١٠) في « ت » : يتعطل .
(١١) في « ع » : كانت موجوداً لا فائدة فيه .
(١٢) في « ع » : نحتاج .
(١٣) في « ع » : نحتاج .
(١٤) في « ع » : نحتاج .
(١٥) في « ع » : وأحكامه وشرائعه .
(١٦) في « ت » : معاونه . وهو تصحيف .
(١٧) في « ت » : فالخفي .
(١٨) السجدة : ١٧ .

فصل في شرف علم التفسير

أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله ، وذاك أن الصناعات الحقيقية[1] إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء :

[— إما بشرف موضوعاتها ، وهي المعمول فيها ، نحو أن يقال : الصياغة أشرف من الدباغة ، لأن موضوعها — وهو الذهب والفضة — أشرف من جلد الميتة الذي هو موضوع الدباغة][2] .

— وإما بشرف صورها : نحو أن يقال : طبع السيوف أشرف من طبع القيود .

— وإمّا بشرف أغراضها وكمالها ، كصناعة الطب التي غرضها إفادة الصحة ، فإنها أشرف من الكناسة التي غرضها تنظيف المستراح .

فإذا ثبت ذلك ، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث[3] وهو أن موضوعها المفسّر : كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة . وصورة فعله : إظهار خفيات ما أودعه مُنْزِلُهُ من أسراره « ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب »

---

(١) في « ع » : الحقيقة وهو تصحيف .

(٢) ساقط من « ت » .

(٣) في « ع » : الثلاثة ..

وغرضه : التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها . ولهذا عظّم الله محله بقوله : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » . [قيل : هو تفسير القرآن][4] .

---

(٤) زيادة من « ع » . وقد نقل هذا الفصل السيوطي في **الإتقان** ببعض اختلاف من زيادة ونقصان ، وقد يكون من المناسب أن نورد ما جاء في **الإتقان** : قال السيوطي في إتقانه : ٤/١٧٣ : قال الأصبهاني .

« أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن ، بيان ذلك أن شرف الصناعة : إما بشرف موضوعها ، مثل الصياغة ، فإنها أشرف من الدباغة ، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة ، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة . وإما بشرف غرضها ، مثل صناعة الطب ، فإنها أشرف من صناعة الكناسة ، لأن غرض الطب إفادة الصحة ، وغرض الكناسة تنظيف المستراح . وإما لشدّة الحاجة إليها كالفقه فإن الحاجة إليه أشدّ من الحاجة إلى الطب ، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق إلّا وهي مفتقرة إلى الفقه ، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين ، بخلاف الطب ، فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات .

إذا عرف ذلك ، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث ، أما من جهة الموضوع ، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وأما من جهة الغرض ، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لاتفنى ، وأما من جهة شدة الحاجة ، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي ، عاجلي أو آجلي ، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى » .

فصل في بيان الآلات التي يحتاج إليها[1] المفسر

اختلف الناس في تفسير القرآن : هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه ؟

فبعض تشدد[2] في ذلك : وقال : لا يجوز لأحد تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً متّسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار ، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي [له][3] عن النبي ﷺ ــ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم ، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين ، واحتجوا في ذلك بما روي عنه ــ عليه السلام : « من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[4] وقوله عليه السلام : « من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[5] ، وفي خبر : « من قال في القرآن برأيه فقد كفر »[6] ، وبما روي عن أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ « أيّ سماء تظلّني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله برأيي » .

وذكر آخرون أن من كان ذا أدب وسيع فموسّع له أن يفسّره ، فالعقلاء الأدباء [فوضى فضاً][7] في معرفة الأغراض ، واحتجوا في ذلك بقوله تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك**

---

(١) في « ت » : إليه

(٢) في الأصول : يشدد .

(٣) ساقط من « ع » .

(٤) انظر روايات الحديث في تفسير الطبري : ١/٧٧ ــ ٧٨ وتعليق الأستاذ محمود شاكر عليها حيث يميل إلى تضعيف الحديث .

(٥) قال ابن كثير : ١/٥ ... عن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ » وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطيعي وقال الترمذي : غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل ، وفي لفظ لهم : « من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

(٦) انظر ما قال فيه ابن كثير : ١/٥

(٧) قال في اللسان :... وكذلك جاء القوم فوضى ، وأمرهم فيضي وفوضى : مختلط ، عن اللحياني وقال : معناه : سواء بينهم كما قال ذلك في « فضا » ومتاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء ويقال أيضاً فضاً قال :

طعامهم فوضى فضاً في رحالهم ولا يحسبون السوء إلا تناديا

[وقد جاءت الكلمتان في « ت » : فوضى]

ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[1] ، وذكر بعض المحققين [أن المذهبين][2] هما الغلو والتقصير فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه ، فقد عرضه للتخليط ، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى : ﴿ **ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب** ﴾ .

والواجب : أن يبين أولاً ما ينطوي عليه القرآن ، وما يحتاج إليه المفسّر من العلوم ، **فنقول وبالله** التوفيق :

إن جميع شرائط الإيمان والإسلام التي دعينا إليها واشتمل القرآن عليها ضربان :

ـــ علم غايته الاعتقاد ، وهو الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

ـــ وعلم غايته العمل ، وهو معرفة أحكام الدين والعمل بها[3] . والعلم مبدأ والعمل تمام ولا يتم العلم من دون عمل ، ولا يخلص العمل من دون العلم ، ولذلك لم يفرد ـــ تعالى ـــ أحدهما من الآخر في عامة القرآن ، نحو قوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً** ﴾[4] وقوله : ﴿ **ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾[6] .

ولا يمكن تحصيل هذين إلّا بعلوم لفظية ، وعقلية ، وموهبية :

فالأول : معرفة الألفاظ : وهو علم اللغة .

والثاني : مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض ، وهو الاشتقاق .

والثالث : معرفة أحكام ما يعرض الألفاظ من الأبنية والتصاريف والإعراب ، وهو النحو .

والرابع : ما يتعلق بذات التنزيل ، وهو معرفة القراءات .

---

(١) ص :٢٩ .
(٢) ساقط من « ت » .
(٣) في « ع » : به .
(٤) الآية : ٩ في التغابن وتتمتها « يكفر عنه سيئاته » والآية : من الطلاق وتمامها : « يدخله جنات » .
(٥) غافر : ٤٠ .
(٦) الرعد : ٢٩ .

والخامس : ما يتعلق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات ، وشرح الأقاصيص التي تنطوي[1] عليها السور من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية ، وهو علم الآثار والأخبار .[2]

والسادس : ذكر السنن المنقولة عن النبي ــ عليه السلام ــ وعمّن شهد الوحي مما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه ، مما هو بيان لمجمل ، أو تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم** ﴾[3] وبقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[4] وذلك علم السنن .

والسابع : معرفة الناسخ والمنسوخ ، والعموم والخصوص ، والإجماع والاختلاف ، والمجمل والمفسّر والقياسات الشرعية ، والمواضع التي يصح فيها القياس ، والتي لا يصح ، وهو علم اصول الفقه .

والثامن : أحكام الدين وآدابه ، وآداب السياسات الثلاث ، التي [هي][5] سياسة النفس ، والأقارب والرعية ، مع التمسك بالعدالة فيها ، وهو علم الفقه والزهد .

والتاسع : معرفة الأدلّة العقلية ، والبراهين الحقيقية ، والتقسيم والتحديد ، والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك ، وهو علم الكلام .

والعاشر : علم الموهبة ، وذلك علم يورثه الله من عمل بما علم[6] وقال أمير المؤمنين ــ رضي الله عنه ــ: قالت الحكمة : من أرادني فليعمل بأحسن ما علم . ثم تلا : ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[7] . وما روي عنه حيث[8] سئل : « هل عندك علم عن النبي ــ عليه السلام ــ لم يقع إلى غيرك » قال : لا ، إلّا كتاب الله وما في صحيفتي ، وفهم يؤتيه الله من يشاء »

---

(١) في « ت » : ينطوي .

(٢) في « ت » : فيه .

(٣) النحل : ٤٤ .

(٤) الأنعام : ٩٠ .

(٥) ساقط من « ت » .

(٦) في « ت » : علم ما يعلم . ويبدو أنها جزء من الحديث الوارد : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » .

(٧) الزمر : ١٨ .

(٨) في « ع » : حين .

وهذا هو التذكر الذي رجّانا تعالى ــ إدراكه بفعل الصالحات ، حيث قال : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾[1] إلى قوله : ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾[2] ، وهو الهداية المزيدة للمهتدي في قوله : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾[3] ــ الآية ــ وهو الطيب من القول المذكور في قوله : ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[4] .

فجملة العلوم التي هي كالآلة للمفسّر ، ولا تتم[5] صناعة إلّا بها ، هي هذه العشرة : علم اللغة ، والاشتقاق والنحو ، والقراءات ، والسير ، والحديث ، واصول الفقه ، وعلم الأحكام ، وعلم الكلام ، وعلم الموهبة .

فمن تكاملت فيه[6] هذه العشرة واستعملها خرج عن كونه مفسّراً للقرآن برأيه . ومن نقص عن بعض ذلك مما ليس بواجب[7] معرفته في تفسير القرآن ، وأحسّ من نفسه في ذلك بنقصه ، واستعان بأربابه ، واقتبس منهم ، واستضاء بأقوالهم ، لم يكن إن شاء الله من المفسرين برأيهم[8]

فإن القائل بالرأي ــ ههنا ــ من لم تجتمع[9] عنده الآلات التي يستعان بها في[10] ذلك ففسّره وقال فيه تخميناً وظناً . وإنما جعله النبي ــ عليه السلام ــ مخطئاً وإن أصاب ، فإنه مخبر بما لم يعلمه ، وإن كان قوله مطابقاً لما عليه الأمر في نفسه ، ألا ترى أن الله تعالى قال : ﴿ **إلّا من شهد بالحق وهم يعلمون** ﴾[11] فشرط مع الشهادة العلم[12] . وكذّب المنافقين في قولهم : « نشهد

---

(١) و (٢) الآية : ٩٠ من سورة النحل وتمامها : ﴿ **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾

(٣) محمد : ١٧ .

(٤) الحج : ٢٤

(٥) في « ع » : يتم .

(٦) ساقط من « ت » .

(٧) في « ع » : بواجبة .

(٨) في « ت » : برأيه .

(٩) في « ت » : يجتمع .

(١٠) في « ت » : فيها بذلك .

(١١) الزخرف : ٨٦ .

(١٢) في « ت » : والعلم .

إنك لرسول الله »[1] فقال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون »[2] .

ومن حق من تصدى للتفسير أن يكون مستشعراً لتقوى الله مستعيذاً من شرور نفسه ، والإعجاب بها ، فالاعجاب أسّ كل فساد . وأن يكون اتهامه لفهمه أكثر من اتهامه لفهم أسلافه الذين عاشروا الرسول وشاهدوا التنزيل . وبالله التوفيق .

---

(١) المنافقون : ١ .

(٢) المنافقون : ١ .

فصل في جواز إرادة المعنيين المختلفين بعبارة واحدة

العبارة الموضوعة لمعنيين على سبيل الاشتراك حقيقة فيهما أو مجازاً في أحدهما ؟

متى تنافي معنياها[1] في المراد لم يصح أن يرادا معاً بعبارة واحدة ، نحو أن يقال : صل صلاة واحدة ، على سبيل الوجوب والندب .

وإذا[2] لم يتنافيا[3] صح ذلك ، نحو اللمس ــ المراد به المسيس ــ والمس . وإلى ذلك ذهب الشافعي رحمه الله ــ وهو مقتضي مذهب سيبويه ، لأنه قال في قولهم : « الويل له » : إنه دعاء[4] عليه وإخبار عن حاله ، فجعله للأمرين في حالة واحدة ، إلى غير ذلك مما دلّ كلامه[5] عليه .

والدلالة على جواز ذلك ، قولهم « افعلوا »[6] ــ في مخاطبة الرجال والنساء ــ وقولهم : « الرجال والنساء فعلوا » وهذه العبارة للمذكر حقيقة ، وللمؤنث مجاز .

وقوله تعالى : ﴿ **يأيها النبي إذا طلقتم النساء** ﴾[7] ، وعناه والمؤمنين ، فهو حقيقة فيه ومجاز فيهم .

وقال الشاعر :

ثقال الجفان والحلوم رحاهم رحى الماء يكتالون كيلاً عذمذما[8]

فوصف « الجفان » بالثقل حقيقة ، ووصف « الحلوم » به مجاز ، وقد نظمهما بلفظ

---

(١) في « ع » : معناها . وفي « ت » : معنياها . ولعل الصواب ما اثبتناه .

(٢) في « ت » : والتي .

(٣) في « ع » : تتنافيا .

(٤) في « ت » : عاء . وهو تصحيف .

(٥) في « ع » : من كلامه .

(٦) في « ع » : افعلوا كذا .

(٧) الطلاق : ١ .

(٨) في « ع » : مذمذماً . وفي اللسان : وموت عذمذم : لا يُبقي شيئاً .

واحد .

وقال آخر :

وماءٍ آجِنِ الْجَماتِ قَفْرٍ[1]

فذكر الماء [وأراده به][2] ومكانَه ، فقد يسمّى مكان الماء ماءً ، والدلالة على [أنه أرادهما][3] أنه قد [وصفه][4] « بآجن الجمات » وذلك من صفة الماء ، و « بقفرٍ »[5] وهو من صفة المكان .

وقال ابن هرمة :

والحوت يسبح في السماء كسبحه في الماء[6]

وهو بكلٍ سبح . والحوت[7] السابح في السماء غير السابح في الماء .

وقالوا : القمران ، للشمس والقمر ، وذلك في الشمس مجاز لا محالة .

---

(١) البيت لربيعة بن مقروم كما جاء في شرح اختيارات المفضل ج ٢ ص : ٨٥١ ــ ٨٥٨ للخطيب التبريزي ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، وقد جاء قبل هذا البيت :

ألا صَرَمت مودَّتك الرُّواع وجَدّ البَيْنُ منها والوداع

بضربٍ قد هنأناه فأمسى عليه في معيشته اتساع

وماءٍ آجنِ الجمّات قَفْرٍ تعقّم في جوانبه السباع

والآجن : المتغيّر . والجمّات : جمع « جمّة » وهو : ما كثر من الماء . والقفر : الخالي . والتعقّم : التشدّد والخبث أي : لا يطور به أحد ... وقال المرزوقي : « تعقم » : أي : تتخذ السباع في جوانبه عقماً لأمنها فيه ، والاعتقام في الحفر : المضي سفلاً .

(٢) في « ت » : وأراد به .

(٣) في « ع » : إرادتهما .

(٤) في « ت » : وصف .

(٥) في « ت » : ويقفر .

(٦) لم أجد البيت في ديوان ابن هرمة المطبوع وقصده بالحوت السابح في السماء : النجم الذي يسمى الحوت .

(٧) في « ع » : عن معنى الحوت .

فإن قيل : إن ذلك لا يصح من حيث إن المتكلم به يكون مريداً استعمال اللفظ فيما وضع له ، والعدول به عن الموضوع له في حالة واحدة ، وذانك[1] أمران متنافيان في المراد ، وهذه عمدة من منع جواز ذلك قيل : إن ذلك إنما يتناف[2] إذا وضع لفظ فاستعمل في معنى واحد على أنه منقول إليه عن غيره ، ومستعمل في موضعه . [أما إذا استعمل في أحد معنييه][3] لا على النقل بل على الوضع له ، وفي الآخر على النقل إليه صحّ إرادتهما معاً .

ثم ليس من شرط المتكلم أن يخطر بباله كيفية وضع اللفظ من حقيقة ومجاز . وأيضاً : فما من لفظ مستعمل في شيئين : حقيقة فيهما أو مجازاً في أحدهما إلّا ويجمعهما معنى عام لهما على طريقة من يراعي مناسبة الألفاظ ، نحو أن يقال : اتق[4] الأسد والحمار ، ويعني بـ « الأسد » : الحيوان الجريء . وبـ « الحمار » : الحيوان البليد ، وذلك متناول للبهيمة والإنسان معاً ، فصح أن يرادا[5] كما يقال[6] : الحيوان الجريء والحيوان البليد .

ومما يحمل من القرآن على ذلك قوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾[7] وذلك [عام][8] في الانسان وغيره ، وقد علم ان الإنسان يسبح بلسانه وفعاله . والجمادات ليست تسبح كذلك ، وقد قرنهما بلفظ واحد ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾[9] قيل : عنى بذلك الغني بالكفاية والغنى بالقناعة معاً ، وأمثال ذلك في القرآن أكثر من أن تحصى ههنا .

---

(١) في « ت » : وذلك .
(٢) في « ع » : ينافي .
(٣) ساقط من « ت » .
(٤) في « ع » : الحيوان في .
(٥) في « ت » : يراد .
(٦) في « ت » : لو قال .
(٧) الاسراء : ٤٤ .
(٨) ساقطة من « ت » .
(٩) الضحى : ٨

ولمثل هذه المعاني المجتمعة فيه ، قال تعالى : ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾[1] وعلى ذلك روي في الخبر « لكل [حرف][2] ظهر وبطن ، ولكل حرف حدّ ومطلع »[3] تنبيهاً على كثرة معانيه المجتمعة تحت اللفظة بعد اللفظة .

---

(١) لقمان : ٢٧ .

(٢) سقاطة من « ت » .

(٣) سبق تخريجه فيما سبق .

فصل في إعجاز القرآن

المعجزات التي أتى بها الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ضربان : حسي وعقلي :

فالحسي : ما يدرك بالبصر ، كناقة صالح ، وطوفان نوح ، ونار إبراهيم ، وعصا موسى ــ عليهم السلام ــ

والعقلي : ما يدرك بالبصيرة ، كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً ، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلم .

فأما الحسي : فيشترك في إدراكه العامة والخاصة ، وهو أوقع عند طبقات العامّة ، وآخذ بمجامع قلوبهم ، وأسرع لإدراكهم ، إلّا انه لا يكاد يفرق ــ بين ما يكون معجزة في الحقيقة ، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً ، أو سبباً اتفاقياً ، أو مواطأة ، أو احتيالاً هندسياً ، أو تمويهاً وافتعالاً ــ إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء .

وأما العقلي : فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة ، والأفهام الثاقبة ، والروية المتناهية ، الذين يغنيهم[1] إدراك الحق .

وجعل تعالى أكثر معجزات بني اسرائيل حسيّاً لبلادتهم ، وقلّة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمّة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « كادت أمتي تكون أنبياء »[2] .

ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ ، وكانت العقليات باقية غير متبدلة[3] ، جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية . وما أتى به النبي ــ ﷺ ــ من معجزاته الحسيّة ، كتسبيح الحصا في يده ، ومكالمة الذئب له ، ومجيء الشجرة إليه ، فقد حواها وأحصاها [أصحاب الحديث][4] .

---

(١) في « ع » : يغنيهم .

(٢) الحديث في مسند احمد : ٢٩٦/١ وقد سبق تخريجه .

(٣) في « ع » : مبتذلة .

(٤) في « ع » : أصحابه . وقد جمع الأستاذ خير الدين وانلي ما صحّ من هذه المعجزات في كتابه « معجزات المصطفى» ﷺ

وأما العقليات : فمن تفكر فيما أورده ــ عليه السلام ــ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة ، اطلع على أشياء عجيبة .

ومما خصه الله تعالى [به][1] من المعجزات[2] القرآن : وهو آية حسيّة عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة في الأرض ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم** ﴾[3] ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولي بسطة في البيان إلى معارضته[4] بنحو قوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله** ﴾[5] وفي موضع آخر : ﴿ **وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[6] وقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾[7] .

فجعل عجزهم علماً للرسالة ، فلو قدروا ما أقصروا[8] ، [إذ قد بذلوا][9] أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره ، فلما رأيناهم تارة يقولون : ﴿ **لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾[10] وتارة يقولون : ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾[11] ، وتارة يصفونه بأنه ﴿ **أساطير الأولين** ﴾[12] وتارة يقولون ﴿ **لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾[13] وتارة يقولون : ﴿ **إئت بقرآن غير هذا أو**

---

(١) زيادة من « ع »

(٢) في « ت » : المعجزة .

(٣) العنكبوت : ٥٠ ــ ٥١ .

(٤) في « ع » : المعارضة .

(٥) البقرة : ٢٣ .

(٦) يونس : ٣٨ .

(٧) الاسراء : ٨٨ .

(٨) في « ع » : قصرا .

(٩) في « ع » : وبذلوا .

(١٠) فصلت : ٢٦ .

(١١) الأنفال : ٣١ .

(١٢) النحل : ٢٤ ، كذلك وردت في عديد من السور .

(١٣) الفرقان : ٣٢

بدله ﴾[1] كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله ، علمنا قصورهم عنه ، ومحال أن يقال : إنه عورض فلم ينقل [فالنفوس][2] مهتزّة لنقل ما دقّ وجلّ . وقد رأينا كتباً كثيرة صنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت[3] .

وهذه الجملة المذكورة ، وإن كانت دالّة على كون القرآن معجزاً ، فليس بمقنع إلا بتبيين فصلين :

أحدهما : أن يبين ما الذي هو معجز : اللفظ أم[4] المعنى أم النظم ؟ أم ثلاثتها ؟ فإن كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة .

والثاني : أن المعجز : هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان ، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام .

فأما ما كان نوعه مقدوراً ، فمحلّه محل الأفضل [وما كان من باب الأفضل][5] في النوع فإنه لا يحسم نسبة ما دونه إليه . وإن تباعدت النسبية حتى صارت[6] جزءاً من ألف ، فإن النجار الحاذق وإن لم يبلغ شأوه لا يكون معجزاً إذا استطاع[7] غيرُه جنسَ فِعْلِه ، فنقول وبالله التوفيق :

إن الإعجاز في[8] القرآن على وجهين : أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني : بصرف الناس عن معارضته[9] :

(١) يونس : ١٥ .
(٢) ساقطة من « ت » .
(٣) في « ع » : وتداولت .
(٤) في « ع » : أو .
(٥) ساقط من « ت » .
(٦) في « ع » : صار .
(٧) في « ت » : استعمله .
(٨) في « ع » : قد ذكر في .
(٩) يقول ابن تيمية في كتابه « الجواب الصحيح : ٤/٧٥ » : « ومن أضْعَف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى =

فأما الإعجاز المتعلّق[1] بالفصاحة : فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، وذاك أن ألفاظه ألفاظهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **قرآناً عربياً** ﴾ وقال : ﴿ **الم . ذلك الكتاب** ﴾ تنبيهاً أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادّة الكلام .

ولا يتعلّق أيضاً بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود في [الكتب المتقدمة][2] ولذلك قال تعالى : ﴿ **وإنه لفي زبر الأولين** ﴾[3] وقال : ﴿ **أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى** ﴾[4] . وما هو

= لزكريا : ﴿ **آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً** ﴾ فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم ـ جميعهم ـ عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ، بمنزلة من يقول : إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله أو إلى وليّ الأمر ، وليس فيهم مع ذلك من يشتكي ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة . ولو قُدّر أن واحداً صنّف كتاباً يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً يقدر أن يقولوا مثله ، وتحداهم كلهم فقال : عارضوني ، وإن لم تعارضوني ، فأنتم كفار مأواكم النار ، ودماؤكم لي حلال امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد . فإذا لم يعارضوه كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

والذي جاء بالقرآن قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعا ومن آمن بي دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي دخل النار وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم ، وغنيمة أموالهم ، ووجب عليهم كلهم طاعتي ومن لم يطعني كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن . فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله . وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله . فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين : فإن كانوا قادرين ولم يعارضوه بل صرف الله دواعي قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فإنّ سَلْبَ القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتي أن كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب ، فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد .

فهذا من أبلغ الخوارق . وإن كانوا عاجزين ثبت أنه خارق للعادة على تقدير النقيضين النفي والإثبات فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر . فهذا غاية التنزل ... » .

(١) في « ع » : المعتلق . وهو تصحيف .

(٢) في « ع » : كتب المتقدمين .

(٣) الشعراء : ١٩٦ .

(٤) طه : ١٣٣ .

معجز [1] فيه من جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب ، فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره ، وسواء كان مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى ، أو بإشارة أو بعبارة .

فإذاً بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً ، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً ، والخطبة خطبة .

فالنظم صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصور[2] يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره ، كالخاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة . فإذا ثبت هذا ثبت أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص .

وبيان كونه معجزاً هو أن نبين نظم الكلام ، ثم نبيّن أن هذا النظم مخالف لنظم سائره ، فنقول : لتأليف الكلام خمس مراتب :

الأولى : [نظم : وهو] [3] ضم حروف التهجي بعضها إلى بعض ، حتى يتركب منها الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحرف .

والثانية : أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة ، وهي النوع الذي

---

(١) في « ع » : بمعجز .

(٢) في « ع » : الصورة .

(٣) ساقط من « ت » .

يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم ، وقضاء حوائجهم ، ويقال له : المنثور من الكلام .

والثالثة : أن يضم بعض ذلك إلى بعض ضمّاً له مبادٍ[1] ومقاطع ، ومداخل ومخارج ، ويقال له : المنظوم .

والرابعة : ان يجعل [له][2] في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له[3] : المسجّع .

والخامسة : ان يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ، ويقال له : الشعر . وقد انتهى .

وبالحق صار كذلك : فإن الكلام إما منثور فقط ، أو مع النثر نظم ، أو مع النظم سجع ، أو مع السجع وزن .

والمنظوم : إما محاورة ، ويقال له[4] : الخطابة ، أو مكاتبة ، ويقال لها[5] : الرسالة ، وأنواع الكلام لا تخرج[6] عن[7] هذه الجملة . ولكل من ذلك نظم مخصوص .

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لا يصح أن يقال :

القرآن رسالة ، أو خطابة ، أو شعر ، كما يصح أن يقال : هو كلام ، ومن قَرَعَ سمعَه فصل بينه وبين سائره[8] النظم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[9] تنبيهاً أن تأليفه ليس [على][10] هيأة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر .

---

(١) في « ع » : مباديء .

(٢) زيادة من « ع »

(٣) في « ت » : ويقاله . وهو خطأ من الناسخ .

(٤) في « ع » : لها .

(٥) في « ت » : ويقالها وهو خطأ من الناسخ

(٦) في « ت » : يخرج .

(٧) في « ت » : من .

(٨) في « ع » : سائر .

(٩) الآيتان : ٤١ ــ ٤٢ من سورة فصلت .

(١٠) ساقطة من « ع »

فإن قيل : ولِمَ لم [يبلغ بنظم][1] القرآن الوزن الذي هو الشعر ، وقد علم أن للموزون من الكلام [مرتبة أعلى][2] من مرتبة المنظوم غير الموزون ، إذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزوناً ؟

قيل : إنما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية[3] في الشعر منافية للحكمة الإلٰهية، فإن[4] القرآن [هو][5] مقر الصدق ، ومعدن الحق . وقصوى الشاعر : تصوير الباطل في صورة الحق ، وتجاوز الحدّ في المدح والذم دون استعمال الحق في تحرّي الصدق ، حتى إن الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق إلّا بالعرض . ولهذا يقال : من كانت قوته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر . ومن كانت قوّته العاقلة فيه أكثر كان في قرضه أقصر . ولأجل كون الشعر مقرّ الكذب ، نزّه الله نبيه ــ عليه السلام ــ عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال ، وواسطة بين الله وبين العباد ، فقال تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾[6] فنفى ابتغاءه له . وقال : ﴿ **وما هو بقول شاعر** ﴾[7] أي : ليس بقول كاذب . ولم يعن أن ذلك ليس بشعر فإن وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أن ينفي عنه . ولأجل شهرة الشعر بالكذب ، سمّي أصحاب البراهين الاقيسة المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية ، وما وقع في القرآن من ألفاظ[8] متزنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه .

وأما الإعجاز المتعلّق بصرف الناس عن معارضته : فظاهر أيضاً إذا اعتبر ، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة ، الا وبينها وبين قوم مناسبات خفية ،

---

(١) في « ع » : يتبع نظم .
(٢) في « ت » : أعلى مرتبة .
(٣) في « ت » : بخاصية .
(٤) في « ت » : وهو أن .
(٥) زيادة من « ع » .
(٦) يس : ٦٩
(٧) الحاقة : ٤١ .
(٨) في « ع » : الألفاظ .

واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد[1] يؤثر حرفة من الحرف فينشرح[2] صدره بملابستها ، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر . وقد تضمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾[3] وقول النبي ـ ﷺ ـ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[4] .

فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الاتيان بمثله ، وليس تهتز[6] غرائزهم البتة[7] للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك . وأي إعجاز أعظم من أن تكون[8] كافة البلغاء مخيَّرة في الظاهر أن يعارضوه ، ومجبرة في الباطن عن ذلك . وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام :

فَإنْ نِكُ أُهْمِلْنا فَأَضْعِفْ بِسَعْيِنا وإنْ نَكُ أُجْبِرْنا فَفِيمَ نُتَعْتِعُ[9]

والله ولي التوفيق [والعصمة][10] .

---

(١) في « ت » : الواحد فالواحد .

(٢) في « ع » : لينشرح .

(٣) المائدة : ٤٨ .

(٤) الحديث في البخاري : كتاب التفسير « تفسير سورة والليل إذا يغشى » ، وكتاب الجنائز : باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله وكتاب الأدب : باب الرجل ينكت الشيء بيده في الأرض ، وكتاب القدر : باب « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » ، وكتاب التوحيد : باب قول الله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر » . ورواه مسلم في القدر برقم (٢٦٤٧) وأبو داود برقم (٤٦٩٤) والترمذي برقم (٢١٣٧) و (٣٣٤١) .

(٥) في « ت » : روى .

(٦) في « ت » : يهتز .

(٧) في « ت » : لن .

(٨) في « ت » : يكون .

(٩) البيت في الديوان : ٣٢٥/٢ ـ طبعة دار المعارف ـ وقد قال الخطيب التبريزي في شرحه : « يقول : إن خُلِّينا والدنيا لينال كل منها بقدر طاقته وسعيه ، فما أضعف سعينا وأخلِق بأن لا ننال منه شيئاً . وإن نَكُ أُجْبِرْنا على ما نحن فيه من الغنى والفقر ، فَفيمَ نهذي ونردِّد في الكلام !؟ « والتَّعْتَعَة » : ترديد الكلام .

(١٠) زيادة من « ت » .

القول في « بسم الله الرحمن الرحيم »

قال بعض العلماء : إنما قال « بسم الله » ولم يقل « بالله » لأنه لما استحبّ الاستعانة بالله تعالى في كل أمر يفتتح به من قراءة وغيرها ، وبعضهم يذكره بقلبه ، وبعضهم يزيد عليه ويقوله بلسانه ويكون أبلغ — وذكر الله مستعمل في كل ذلك[1] — وألفاظ الاستعانة نحو « أستعين بالله » و «اللهم أعِنّي » ونحو ذلك كثير ، فصار لفظة « بسم الله » مستغنىً به عن جميعها وقائماً مقامها ، ولو قال « بالله » (لكان يقتضي الاستعانة »[2] بهذه اللفظة فقط[3] .

و « اسم — ههنا — موضوع موضع المصدر ، أي : التسمية ، نحو قوله : وبعد عَطائِكَ المائةَ الرِّتاعا[4] .

أي : إعطائك ،وكما وضع « السَّلام » موضع « التسليم » .

وذكر أبو عبيدة أن قوله « بسم الله » معناه : بالله — والاسم زيادة — واحتج بقول الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[5]

وإنما المعنى أن القائل إذا قال : « بالله أبتديء » فمعناه : بهذا الاسم . وإذا قال : « بسم

---

(١) جاءت هذه الجملة في الأصل بعد قوله « ونحو ذلك كثير » والظاهر انه كان خطأ من الناسخ .

(٢) جاءت هذه الجملة في الأصل بعد قوله : « وقائماً مقامها » والظاهر انه كان خطأ من الناسخ .

(٣) جاءت هذه الكلمة في الأصل بعد « بالله » والظاهر أن اضطراباً وقع من الناسخ في الصفحة الأولى .

(٤) هذا هو الشطر الثاني من بيت للقطامي — ديوانه : ٤١ — والشطر الأول : « أكُفراً بعد رَدِّ الموت عني » ويريد بذلك أنه يعترف بحق زفر بن حارث الكلابي عليه وكان قد أسره في الحرب ثم منَّ عليه وأعطاه مائة من الإبل التي ترتع والشاهد في البيت مجيء « العطاء » بمعنى « الإعطاء » الذي هو المصدر ولذلك نصب به « المائة » .

(٥) البيت للبيد وقد جاء قبله :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلّا من ربيعة أو مضر
فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَر
وقولا : هو المرء الذي لا خليله أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

وانظر رد الطبري لقول أبي عبيدة والتفسير الصحيح لقول لبيد في تفسير الطبري : ١/١١٩ — ١٢١ .

الله » فمعناه قول القائل « أفتتح بالله » فإن المقصود به « المسمَّى » أو « غيرُه » .

وما ذكر من الخلاف في أن « الاسم » هو « المسمّى ؟ » أو « غيره ؟ » فقولان قالوهما بنظرين مختلفين ، وكلاهما صحيح بنظر ونظر ، وذاك أن من قال : الاسم الذي هو زيد أو عمرو ، هو المسمّى ، فإنما نظر إلى نحو قولهم : « رأيت زيداً » و « زيد رجل فاضل » فإن « زيداً » — ههنا — عبارة عن المسمى ، والرؤية تعلقت به .

ومن قال : هو غير المسمّى ، فإنه نظر إلى نحو قولهم : « سميت ابني زيداً » و « زيد اسم حسن » وإنما عني : أني سمَّيْتُ : بهذا اللفظ الذي هو « زي د » وأن هذا محكوم عليه بالحسن ، فإن قولك : « زيدُ حسن » لفظ مشترك يصحُّ أن يعنى به أن هذا اللفظ حسن وأن يُعني به أن المسمّى به حسن .

ونحو هذا : الاشتباه في قولك : هذا إنسان ، فإنه يستعمل على ضربين :

أحدهما : أن يختلف ، أو يشك في اسمه ، فيقال : هذا إنسان ، أي : اسمه .

والثاني : ان يختلف أو يشك في جوهره فيقال : هذا إنسان أي : جوهره الإنسانية .

وكثير من المواضع مثل هذا يقع فيه المغالطة .

وأما تصور من قال : لو كان الاسم هو المسمّى لكان من قال : « النار » أحرقت فمه[1] . فهذا تصور بعيد . فإن عاقلاً لا يقول : إن هذه الحروف التي هي « زي د » هو الشخص .

واشتقاق « اسم » : قيل[2] هو من « وسمت » لأن الاسم علامة للمسمى ، وهذا وإن كان من حيث المعنى يصح فتصريف الكلمة يبطله ، نحو سميت ، والتسمية ، والمسمّى ، ولأن ألف الوصل لا يدخل فيما حذف فاؤه[3] نحو : « عِدَة و « زِنَة» .

---

(١) يريد بذلك أنه لو كان الاسم هو المسمى لكان مجرد اللفظ بكلمة « النار » كافياً لاحراق فم قائلها .

(٢) هو قول الكوفيين .

(٣) قال ابن عطية في تفسيره ٥٥/١ : وحذفت فاؤه اعتلالاً على غير قياس . والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي . وأما المعنى فيه فجيد لولا ما يلزمهم من أن يقال — في التصغير — وسيم — وفي الجمع — أوسام ، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها .

والصحيح : أن اصله من « السمو » ، لأن الاسم شعار للمسمّى ورفعة له . وأصله : سِمْو ، كعِضْو[1] وجِنْو[2] ، أو سَمَوْ ، كجَبَل ، وجَمَل ، لقولهم في الجمع : أسماء . وقد كثر « أفعال » في جمع هذين البناءين ولا يُجْعَل فُعْلاً[3] ، كـ « تُرْس » و « أتراس » ، لأن باب « فُعْل » لم يكثر فيما آخره واو استثقالاً .

فأما قول الشاعر : باسم الذي في كل سورة سِمُهُ[4] .

فقد قيل : إنما ضمّ إتباعاً لما بعده . ولو كان الميم مكسوراً لم يجز في « السين » الضمة .

فأما لفظة « الله » : فيجب أن يعلم أن أسماء الله تعالى كلها مشتقة باتفاق أهل اللغة إلّا لفظة « الله » فإنه مختلف فيها :

فبعضهم جعلها كـ « العَلَم » مستدلاً بأنه يوصف ولا يوصف به ، كالأسماء الأعلام ، ويقوّي ذلك أنه يقال ــ بالتنوين ــ إلاهاً ، ولأنه قال تعالى : ﴿ **هل تعلم له سميّاً** ﴾ وتعني به « الله » .

وآخرون قالوا : هو مشتق . ثم اختلف بعد ذلك فيه :

فقيل : أصله « إلاه » مصدر من « أله » « يأله » أي : عَبَدَ . فسمّي به ، كقولهم في صفاته تعالى : « السلام » ، وهو في الأصل مصدر . وسمّوا الشمس « إلهة » لعبادتهم لها . ولذلك نهاهم الله تعالى بقوله : ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي**

---

(١) قال في مختار الصحاح : والعضو ــ بضم العين وكسرها ــ واحد الأعضاء .

(٢) قال صاحب القاموس المحيط : والجِنْو ــ بالكسر والفتح : كل ما فيه اعوجاج من البدن .

(٣) وهذا مخالف لما ذكرته معظم المصادر حيث أجازت ذلك . وقد قال مكي في « مشكل إعراب القرآن » : و « اسم » أصله : « سِمْو » وقيل « سُمْو » وهو عند البصريين مشتق من « سما يسمو » ولذلك ضمت السين في أصله في « سُمٍ » وقيل هو مشتق من « سمي يسمى » ولذلك كسرت السين في « سِم » .

(٤) هذا المشطور من الرجز لرؤبة بن العجاج وقد روي بضم السين وكسرها في « سِمه » وقد جاء بعده :

أرسل فيها بازلاً يُقرمه ... فهو بها ينحو طريقاً يعلَمُه

وهو في نوادر أبي زيد : ١٦٦ وفي النوادر لأبي مسحل : ٩٥/١ وفي تفسير أرجوزة أبي نواس لابن جني : ١٨٤ والإنصاف لابن الأنباري : ١٠/١

خلقهن ﴾(*) وسموا الأصنام آلهة لذلك . وأصله : إلاه فحذفوا همزته ، وجعلوا الألف واللام عوضاً منها[1] ولكونهما عوضاً استجيز قطع الهمزة الموصولة ، وإدخال حرف النداء عليه في قولهم : « ياالله » .

وقال سيبويه — في موضع : أصله : لاه ، على « فَعْل » [من لاهَ يَلُوهُ لياهاً ، أي : احتجب قالوا وذلك إشارة إلى ما قال تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصارَ** ﴾ [2] [وقيل : من أَلِه : إذا][3] فزع ، وألَهَه : أي : أعاذه وأمّنه . والإله : اسم المفزوع إليه كالإمام لمن يؤتم به .

وقيل : هو من أَلِهَ يأله ، إذا تحيّر ، وكأنه عني ذلك أمير المؤمنين عليه السلام : « كَلَّ دون صفاته تحبير الصفات ، وضلّ هناك تصاريف اللغات »[4] ومنه قيل في صفة المفازة : « ومهمهٍ تأله العين وسطها » .

وقيل : أصله : ولاه ، من وَلِهَ يَوْلَه ، فقلب الواو همزة ، فيكون الإله اسماً لما يؤلَهُ نحوه .

فمن الناس من قال : إن ذلك قيل لأن الأشياء تأله نحوه إما تسخيراً ، وإما إرادة وقصداً ، كما أنه يُسَبِّحُ له لذلك . وعلى هذا قال : ﴿ **تُسَبِّحُ له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾[5] وذلك إما تسخيراً ، وإما إرادة[6] .

(*) فصلت : ٣٧

(١) كتاب سيبويه : ١٩٥/٢ .

(٢) هذه الإضافة ساقطة من الأصل وقد استدركناها من كتاب « المفردات » للمؤلف ليستقيم الكلام . وقد نقل ابن يعيش في المفصل : ٣/١ قول سيبويه هذا وقال فيه : « ووزن لاه : فَعْل واشتقاقه من لاه يليه إذا تستر كأنه سبحانه يسمى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار » .

(٣) وهذه الجملة مستدركة من تفسير روح المعاني : ٥٦/١ وقد جاء بدلاً منها في الأصل الجملة التالية : « كحيل بدلالة قولهم » وهي غير واضحة المراد .

(٤) في الأصل : « كلّ دون صفات تحبير اللغات وضل فيما هناك تصاريف الصفات » والتصحيح من كتاب « المفردات » للمؤلف .

(٥) الاسراء : ٤٤

(٦) انظر المفردات للمؤلف مادة « أله » .

ومنهم من قال : ذلك مختص بالعقول التي فطرها الله ، وأشار إليها بقوله : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ لأن العقول بفطرتها دالة على وحدانيته ، ومنبئة عن وجوب شكره ، ما لم يُدَسِّها صاحِبُها ، كما قال تعالى : ﴿ **وقد خاب من دسَّاها** ﴾[1] .

ومنهم من قال : ذلك مختص بالأحوال التي ينقطع الانسان عن غيره » فيقصده بفكره ، وإليه أشار بقوله : ﴿ **ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تجأرون** ﴾[2] .

ومنهم من قال : ذلك مختص بالعباد المخلصين . والعبارة عنه بذلك كالعبارة عنه بالمحبوب . والمراد المشار إليهما بقوله تعالى : ﴿ **سوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾[3] وبقوله : ﴿ **الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾[4] .

وقد أطلق بعض الأولياء وبعض القدماء عليه تعالى لفظ المعشوق ، والمشوق ، إلّا أن ذلك كرهه أهل العلم لأمرين : عدم التوقيف فيه . وكون العشق في هذه اللغة متعارفاً في اللذات البدنية .

« الرحمن الرحيم » : الرحمة ــ في اللغة ــ رِقَّةٌ مُقْتَضِيَةٌ للتَّعطُّف والتَّفضُّل ، فمبدؤها الرِّقَّةُ التي هي انفعال . ومنتهاها : العطف والتَّفَضُّلُ الذي هو فعل . فالإنسان إذا وُصِفَ بالرحمة ، فتارةً يُرادُ به حصولُ المبدأ الذي هو الرِّقة ، وتارةً يرادُ به المنتهى الذي هو التفضل والعطف ، وتارة يرادان معاً .

وإذا وصف بها الباري ، فليس يراد به إلّا المنتهى الذي هو الفعل دون المبدأ الذي هو الانفعال ، إذ هو منزه عن الانفعالات وعن كل نقص ــ تعالى الله عن ذلك ــ وعلى ذلك : « الرؤوف » فإن الرأفة انعصار القلب عن مشاهدة شدَّةٍ مُقْتَضِيَةٍ للإعَانة ، فمتى وُصِفَ به الإنسان صَحَّ أن يراد به المبدأ الذي هو انعصار القلب . وإذا وصف به الباري ، فليس يراد به إلا الغاية التي هي الإعَانة ، وعلى ذلك الجود فإنه اختصاص بخلق مقتضٍ لأن لا يُدَّخر عن المحتاج ما ينتفع به على ما يجب ومتى وصف به الباري تعالى فالمراد به النهاية التي هي ترك

---

(١) الشمس : ١٠ .
(٢) النحل : ٥٣ .
(٣) المائدة : ٥٤ .
(٤) الكهف : ٢٨ .

الادخار ، دون الاختصاص بالخلق .

وهذا التفسير ــ أعني في « الرحمة » ــ هو على ما روي عن التابعين ، حيث قالوا : الرحمة من الله إنعام وإفضال ، ومن الآدميين : رقة وتعطف . وهذه الطريقة أظهر وأبين ، وأشبه بنظر السلف ، من نظر من تخبّط في تفسير ذلك زاعماً أن الوصف لا يختلف معانيه باختلاف الموصوفين ، وذلك أن قائل ذلك لم يتصور أنه قد يكون بين مبدأ المعنى ومنتهاه بون بعيد . فإن قولنا : « العالِم » وإن كان موضوعة للمدح ، فإن مبدأه أن يتخصص الموصوف به بمعلومات ما يخرج بها عن حَدِّ الجهالة ، ووسطه : أن يحصل له معلومات كثيرة تفوق بها أكثر العلماء ، وغايته : أن يحيط بجميع المعلومات بحيث لا يخفي عليه شيء ، ولا يدركه سهو ولا غفلة ولا نسيان . ومعلوم أن المبدأ يصح لأكثر الخلائق ، ووسطه ليس إلّا للخصائص ، من الأنبياء والحكماء ،وغايته: ليس إلا لله تعالى ، وذلك ظاهر « لمن ألقى السمع وهو شهيد »[1] .

فأما لفظة « الرحمن » فليس يطلق إلّا لله . كلفظة « الله » فإنهما اسمان اخْتُصَّ بهما الباري ــ جل وعز ــ باتفاق ، ولأجل ذلك قال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاماً تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾[2] . فالرَّحمن : هو الذي كثرت رحمته وتكررت ووسعت كُلَّ شيء ، ولذلك فُسِّرَ بأنه الذي يكون منه تعطُّف وتَفضُّل .

وأما « الرَّحيم » : فقد يوصَف به غيرُه إذا كان معناه : الذي كثرت رحمته ، وعلى ذلك : « نديم » و « ندمان » فإن « النديم » : هو الذي كثرت منادمته . و « الندمان » : هو الذي مع كثرة ذلك منه تكرّرت عنه . ولذلك قال أهل اللغة : « ندمان » أبلغ من « نديم » ، ولفظهما يدل على ذلك ، فإن العرب إذا أرادوا زيادةَ معنى زادوا في اللفظ في الأمر العام ، كأنما يحاكي باللفظ المعنى ، نحو « قَطَعَ » و « قَطَّعَ » و « كُبَار » و « كُبَّار » و «احمرَّ » و « احمارَّ » وذلك فصل قد أُحْكِمَ في غير هذا الموضع .

فإن قيل : ما الفائدة في الجمع بينهما مَعَ أن « الرحمن » يقتضي معنى « الرحيم » ــ إذ هو أبلغ منه ؟

---

(١) اقتباس من الآية : ٣٧ من سورة ق .
(٢) الإسراء : ١١٠ .

قيل : إنه تعالى لما خلق الدارين ، وكان في دار الدنيا مُنْعِماً على المؤمن والكافر ، واخْتَصَّ رحمتَه بالمؤمنين في الآخرة ــ ولذلك قيل : رَحْمنُ الدُّنيا ، ورَحيم الآخرة ، وقال تعالى : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾[1] ــ جمع بين الوصفين . وأما ذِكْرُ « الرحيم » بعد « الرحمن » فذكر خصوص بعد عموم .

وروي عن عطاء أنه قال : كان الله اخْتُصَّ بالرحمن ، فلما تسمَّى بعضُ الكفار ، قال : « الرَّحمن الرحيم » ، إذ كان الاسمان معاً لم يوصف غيرُ الله به بوجه .

وقدم ذكرَ « الله » ، إذ هو أخصُّ الأسماء .

و « الرَّحِمُ » و « الرَّحَمةُ » مشتق بعضها من بعض ، وقد دلّ على ذلك قوله عليه السلام :

« لما خلق الله الرحم ، قال : أنا الرحمن ، وأنت الرحم ، شققت لك اسماً من اسمي ، فَوَعزتي وجلالي لَأصِلَنَّ مَن وصَلَكِ ، ولأقطعنَّ مَن قطعك »[2] .

ومعنى ذلك : أن الله تعالى لما جعل بين نفسه وبين عباده سبباً ــ فهو كما أنه كتب على نفسه الرحمة لعباده ، وأوجب عليهم في مقابلتها شكرَ نعمته لما كان هو السبب الأول في وجودهم

---

(١) الأحزاب : ٤٣ .

(٢) الحديث في سنن أبي داود تحت رقم /١٩٦٤/ بلفظ : حدثنا مسدد وأبوبكر بن شيبة قالا : ثنا سفيان عن الزهري عن أبي سلمة عن عبدالرحمن بن عوف ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : أنا الرحمن وهي الرَّحِم شققت لها اسماً من اسمي ، من وصَلَها وصلته ، ومن قطعها بتته » .

وفي سنن الترمذي تحت رقم « ١٩٠٧ » عن عبدالرحمن بن عوف أنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله : أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرَّحِم وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلتُه ومن قطعها بَتَتُّه » .

وانظر ما قيل في سند الحديث في جامع الأصول : ٤٨٦/٦ .

وخَلْق قُواهم وقُدَرِهم وسائر خيراتهم ــ كذا أيضاً [جعل][1] بين ذوي اللحمة بعضهم مع بعض سبباً أوجب به على الأعلى التوفر على الأدون ، وعلى الأدون توقير الأعلى ، فصار بين « الرحم » و « الرحمة » مناسبة معنوية ، كما أن بينهما نسبة لفظية . ولهذا عظّم شكر الوالدين ، فقرنه بشكره في قوله تعالى : ﴿ **اشكر لي ولوالديك** ﴾[2] تنبيهاً أنهما السبب الأخير في وجود الولد ، كما أنه تعالى السبب الأول في وجود كل موجود .

---

(١) زيادة يقتضيها الكلام .

(٢) لقمان : ١٤ .

سورة الفاتحة

قوله عز وجل : « الحمدُ لله » :

الحمد : هو الثناء بالفضيلة . والشكر : مقابلة النعمة قولاً وعملاً . ولما كانت النعمة لا تخرج من كونها فضيلة ، صار الحمد منطوياً على معنى الشكر . فكل شكر حمد . وليس كل حمد شكراً[1] . ولكون الحمد أعمّ قال ابن عباس : « الحمد هو الشكر لله **والاستخذاء والإقرار** بنعمه »[2] . وقال — عليه السلام :

« الحمد رأس الشكر ، وما شكر الله عبد لم يحمده »[3] ولذلك **قال**إحمد الله شكراً، ولم يقل : شكرت الله حمداً .

ولكون الشكر بالفعل كما يكون بالقول ، قيل : دابة شكور ، إذا ظهر سمنها[4] بأدنى علف هنا ، وقال تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾[5] .

وأما الفرق بين « الحمد » و « المدح » : فالحمد أخص ، إذ لا يستحق إلّا بالفعل

---

(١) انظر في هذا « مفردات الراغب » : مادة « حمد » .

(٢) قال السيوطي في الدر المنثور : ١١/١ : « وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الحمد : هو الشكر **والاستخذاء** لله ، والإقرار بنعمه وهدايته وابتدائه وغير ذلك » .

(٣) قال السيوطي في الدر المنثور : ١١/١ : « أخرج عبدالرزاق في « المصنف » والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » والخطابي في « الغريب » والبيهقي في « الأدب » والديلمي في « مسند الفردوس » والثعلبي عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قرأ : الحمد رأس الشكر فما **شكر الله عبد لا يحمده** » .

(٤) في الأصل « سمنه » والتصحيح من مفردات الراغب حيث جاء فيها : « ودابة شكور : مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها » .

(٥) الآية : ١٣ من سورة سبأ ، وقد قال الراغب في مفرداته : « والشكر ثلاثة أضرب : شكر القلب : وهو تصور النعمة ، وشكر اللسان : وهو الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح : وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه «اعملوا آل داود شكراً» فقد قيل : «شكراً» انتصب على التمييز ، ومعناه اعملوا ما تعملونه شكراً لله . وقيل : « شكراً » مفعول لقوله « اعملوا » وذكر اعملوا ، ولم يقل : اشكروا لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح » [المفردات : ٢٧٢]

الاختياري والمدح قد يستحق بما يكون من قبل الله تعالى . يقال : فلان ممدوح على جوده ومحمود . وممدوح حسنه ، ولا يقال : محمود .

والمدح : أكثر ما يقال إنما يقال في الأشياء النافعة التي لم تبلغ الغاية ، كالثروة ، والجلادة ، والجود .

والحمد يقال في ذلك ، وفيما فوقه ، فيقال : الجود محمود . والله تعالى محمود . وقلّ ما يقال : الله ممدوح (★) .

واللام في « الحمد » : للجنس ، تنبيهاً أن الحمد كله في الحقيقة لا يستحقه سواه ، وأنَّ كُلَّ حمدٍ لغيره فهو عارية . والله تعالى هو المستحق له في الحقيقة ، إذ هو سبب كُلِّ نِعْمَةٍ وخير ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَما بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِن الله ﴾[1] .

ان قيل : لِمَ لم يقل : الحمدُ لي ؟ [قيل][2] لأن ذلك تعليم منه لعباده ، كأنه قال : [قل][3] بسم الله ، الحمد لله ، بدلالة قوله : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »[4] .

وقيل : إن ذلك كقول الرجل لابنه : الحمد في كذا لأبيك . فيأتي بلفظ الغائب ليكون أبلغ .

وقيل : إنَّ « قُلْ » غير مقدر في هذا الموضع ، لأن الله حمد نفسه لِيُقْتَدى به في حمده ، بدلالة ما روي عن النبي ــ ﷺ ــ

« ليس شيء أحب إلى الله من الحمد أثنى على نفسه فقال : « الحمد لله »[5] ، ولأن أرفع

(★) انظر مفردات الراغب مادة « حمد » ص : ١٣٠ .

(١) النحل : ٥٣ .

(٢) زيادة يقتضيها سياق الكلام .

(٣) زيادة يقتضيها الكلام .

(٤) النمل : ٥٩ .

(٥) قال في الدر المنثور : ١٢/١ : « وأخرج ابن جرير عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال : « ليس شيء أحب إليه الحمد من الله ، ولذلك أثنى على نفسه فقال : الحمد لله » .

حمد ما كان من أرفع حامد ، وأعرفهم بالمحمود ، وأقدرهم على إيفاء حَقّه في الحمد . وما حامد أرفع منه وأعرف بذاته وأقدر على حمده منه تعالى ، كما لا محمود أرفع منه وأعلى .

وقال بعضهم : كل ثناء أثنى الله على نفسه ، فهو في الحقيقة إظهاره بفعله . **فحمده** لنفسه : هو بثُّ آلائه ، وإظهارُ نعمائه بمحكمات أفعاله المقتضية لحمده . فكأن قوله « الحمد لله » ــ تقديره : الحمد لله ظاهر بآلائه ، وعلى ذلك قوله : ﴿ **شهد الله انه لا إله إلّا هو** ﴾[1] فإن شهادته لنفسه إيجاده الأشياء دالّة على وحدانيته ناطقة بالشهادة له .

وعلى هذا قال ذو النون : لما شهد لنفسه ، أنطق كل شيء بشهادته :

ففي كل شيء له شاهد يدل على أنه واحد

وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلّا يسبح بحمده** ﴾[2] وقوله : ﴿ **يسبح له ما في السموات والأرض** ﴾[3] . إن قيل استحسن حمده لنفسه وقد علم في الشاهد استقباح حمد الإنسان نفسه حتى قيل لحكيم : ما الذي لا يحسن وإن كان حقاً ؟ فقال : مدح الرجل نفسَه ؟!

قيل : إنما قبح ذلك من الإنسان ، لأنه ما من أحد إلّا والنقص فيه ظاهر ، ولو لم يكن إلّا في كون أثر الصنعة عليه وحاجته إلى الكمال ، ومن خفي عليه **نقصه فقد خدع** عنه عقله . ثم مدح الإنسان نفسَه ليس بقبيح على الإطلاق ، فإن ذلك مُسْتَحْسَن عند تنبيه المخاطَب على ما خفي عليه من حال المخاطِب ، كقول عالم يحث المتعلّم على الأخذ عنه : اسمع مني فإنك لا تجد فيه مثلي . وعلى ذلك قول يوسف ــ عليه السلام : ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾[4] .

إن قيل : « الحمد لله » : خبر . ويقتضي مخبراً . فما الفائدة في إيراده في الخلوات ؟

---

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) الاسراء : ٤٤ .
(٣) الحشر : ٢٤ .
(٤) يوسف : ٥٥ .

قيل : أما في القرآن ، فلِماَ نَدَبَ الله تعالى إلى تلاوته .
وأما في غيره ، فلئلَّا ينفكَّ من حمده في شيء من الأحوال ، كما لا ينفك من نعمه اعترافاً له بها فكأنّه هو المخبر .

« رب العالمين » :

الرب ــ في الأصل ــ التربية . يقال : ربَّهُ ، وربَّاهُ[1] . فَسُمِّي الرأب ربّاً لزيادة معنىً تُصُوِّرَ منه . ومنه قيل : « لأَنْ يَرُ بُني رجل من قريش أحبُّ إليّ من أن يَرُبُّني رجل من هوازن » . فـ « ربُّ العالمين » : هو المتكفِّل بمصلحتهم . ولا يقال : « الرَّب » ــ مطلقاً بالألف واللام ــ إلّا لله تعالى . وتسميتهم إيّاه بذلك للنظر إلى آلائه .

قال بعض المحققين ــ في الفرق بين قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم** ﴾[2] وقوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾[3] قال :

حيث خاطب الناس كافة حثهم على اتقائه برؤية آلائه ، لاشتراكهم كلهم في معرفتها وتصورهم إياها . وحيث خاطب المؤمنين حثهم على اتقائه بلا واسطة .

و « العالَم » : اسم للفلك وما يحويه ، وجميع ما فيه من الجواهر والأعراض . وهو في الأصل : اسم لما يُعْلَمُ به . و « فَاعَل » : كثيراً ما يجيءُ في اسم الآلة التي يفعل بها الشيء كـ « الطَّابَعْ » و « الْخَاتَمْ » و « الْقَالَب » . فَجُعِلَ بناؤُه على هذه الصيغة لكونه كالآلة في الدَّلالة على صانعه[4] .

وأما جمعه : فقد قيل : لأن لله تعالى بضعة عشر عَالَماً . ولما كان في جملتها الناسُ جمع

---

(١) قال المؤلف في كتابه المفردات : « الرَّبُّ ــ في الأصل ــ التربية : وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ، يقال : رَبَّهُ ، ورَبَّاه ، ورَبَّبه ... فالرَّبُّ : مصدر مستعار للفاعل ..

(٢) النساء : ١ ، والحج : ١ ، ولقمان : ٣٣ .. وقد جاءت في الأصل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ وهو خطأ من الناسخ .

(٣) البقرة : ٢٧٨ ، والمائدة : ٣٥ ، والتوبة : ١١٩ ، والأحزاب : ٧٠ .

(٤) قال المؤلف في كتاب المفردات بعد هذه الجملة : « ولهذا أحالنا تعالى عليه في معرفة وحدانيته فقال : ﴿ **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض** ﴾ .

جمعَهم ، إذ من شأن الإنسان ــ إذا شارك غيرَه في اللفظ ــ أن يكون الحكمُ في اللّفظِ له .

وقيل : لأنه عني به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والانس[1] دون غيرها ــ وإليه ذهب ابنُ عباس ومجاهد .

وقيل : عني به الناس ، وجعل كُلَّ واحدٍ منهم عالماً ــ قال ذلك جعفر بن محمد . قال : العالم عالمان : عالَم كبير ، وهو الفلك بما فيه . وعالَم صغير ، وهو الإنسان . وقال : سمِّي كُلَّ إنسانٍ عالَماً ، لأن فيه جواهر العالم الأكبر من الأخلاط الأربعة ،[2] ولأن لحَمه كالأرض الرَّخوة ، وعظامَه كالجبال ، ودمه الجاري في العروق كالمياه في الأنهار ، ونفسَه كالريح ، وشعرَه كالنبات . وفيه من الْمَلَكِ : العقل ، ومن البهائم : الشهوة ، ومن النبات : النمو والتغذّي .

قال فصار عالَماً يُعْلَم به وحدانيةُ صانعه ، كما يُعْلَم بالعالَم الكبير .

ولذلك قال تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[3] . وقال عليه السلام : ﴿ **أعلمكم بنفسه أعلمكم بربه** ﴾[4] وقيل ــ فيما أنزل الله في السُّفْر الأول : ﴿ **من عرف نفسه فقد عرف ربه** ﴾[5] ، وإلى ذلك أشار بقوله عز وجل : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم**

---

(١) في المفردات : « وأما جمعه : فلأن من كل نوع من هذه قد يُسمَّى عَالَماً ، فيقال : عَالَمُ الانسان ، وعالَم الماء وعالَمُ النار » .

(٢) في المفردات : « والصغير : هو الإنسان لأنه مخلوق على هيئة العالَم ، وقد أوجد الله تعالى فيه كلَّ ما هو موجود في العالم الكبير » .

(٣) الذاريات : ٢١

(٤) قال في كشف الخفاء ومزيل الالباس ٣٤٣/٢/ ــ ٣٤٤ : « وقال النجم : قلت : وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي : عن عائشة سئل النبي ــ ﷺ ــ : مَن أعرفُ الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه .

(٥) قال في « كشف الخفاء » ٣٤٣/٢ : « قال ابن تيمية : موضوع . وقال النووي قبله : ليس بثابت وقال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكي عن يحيى بن معاذ الرازي ــ يعني من قوله ــ قال ابن الفرس بعد أن نقل عن النووي أنه ليس بثابت ــ قال : لكن كتب الصوفية مشحونة به يسوقونه مساق الحديث كالشيخ محيي الدين بن عربي وغيره . قال : وذكر لنا شيخنا الشيخ حجازي الواعظ شارح الجامع الصغير للسيوطي بأن الشيخ محيي الدين بن عربي معدود من الحفاظ . وذكر بعض الأصحاب أن الشيخ محيي الدين قال : هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية فقد صحَّ عندنا من طريق الكشف ــ وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه : القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

انفسهم ﴾[1] تنبيهاً أنهم لو تفكروا في أنفسهم لما خفي معرفته عليهم .

وقال المفضل بن سلمة : العرب تقول : « العالمين » ــ بالياء ــ في موضع النصب والرفع والجر ، إلّا قوماً من كنانة يقولون : « اللذون » قال : ويدل على ذلك أن « فاعَلْ » لا يجمع جمع السلامة[2] قال : وعلى ذلك : « الأقورين »[3] و « الفتكرين »[4] و « البرجين »[5] وذكر أن من قال : « العالمون » فقد وقع عليه السهو ، حيث لم يجدوا ذلك في موضع الرفع ، لما وجد « الذين » في موضع رفع وذكر المبرد أن هذا سهو من قائله ، لأنه رأى ذلك في القرآن إما خفضاً أو نصباً .

﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ : قيل : المِلك : الذي يَمْلِكُ الأمر والنهي في الجمهور . وإنما شرط الجمهور ، لأن كل إنسان يَمْلِكُ ذلك في نفسه وما يختصُّ به ، ثم لا يقال له مَلِك . وهذا إنما قاله بالنظر العاميّ . وأمّا بالنظر الخاصي : فهو في الحقيقة اسم لمن يَمْلِكُ السِّياسَة في نفسه ، أو منها ، أو في غيرها . ومالِكُ ذَلكَ مِن نفسِه أجلُّ مَلِك وأكبرُ سلطان ولذلك قيل لحكيم ما الملك الأعظم ؟ فقال : « أن يَغْلِبَ الانسانُ شهواتِه » . بل لهذا قال عليه السلام لمن سأله أيُّ الأعمال أشد ؟ فقال : ﴿ **جهادُ هواك** ﴾[6] . وقال : « **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** »[7] .

---

(١) الحشر : ١٩ .

(٢) قال صاحب القاموس : « والعالَم : الخلْق كُلُّه ، أو ما حواه بطن الفَلَك . ولا يجمع « فاعَل » ــ بالواو ــ غيره وغير « ياسَم » .

(٣) قال صاحب القاموس : « ولقيت منه الأَقْوَرين ــ بكسر الراء ــ والأقوريات : أي : الدّواهي » .

(٤) قال صاحب القاموس : والفتكرين بتثليث الفاء وفتح التاء وبكسر الفاء وسكون التاء وفتح الكاف ــ: الداهية ، أو الأمر العجب العظيم .

(٥) **هكذا جاءت الكلمة في الأصل والظاهر أنها تصحيف لكلمة أخرى .**

(٦)و(٧) قال في « كشف الخفاء » ١/٥١١ ــ ٥١٢ : « قال الحافظ بن حجر في تسديد القوس : هو مشهور على الألسنة ، وهو من كلام إبراهيم بن عيلة ــ انتهى ــ وأقول : الحديث في الإحياء ، قال العراقي : رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ، ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ : « قدم النبي ــ ﷺ ــ من غزاة ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد متم من خير مقدم وقد متم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه ــ انتهى ــ والمشهور على الألسنة : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الأكبر دون باقيه ففيه اقتصار ــ انتهى .

وحجة من قرأ «مِلِك» : قوله تعالى : ﴿ لمن الْمُلْكُ اليوم ﴾[1] وقوله : ﴿ الْمُلْكُ يومئذ لله ﴾[2] . والملك : مصدر « الْمَلِك » لا « المالك » .

وأما « المالِك » : فهو الضابط للشيء المتصرف فيه بالحكم ، ومنه « مَلَكْتُ العجين » . و « الوكيل » : ـــ وإن كان ضابطاً للشيء متصرفاً فيه ـــ فإنه لا يقال له : « مالِك » لما كانت يَدُه يَدَ غيره . ويقال للصبيّ والمعتوه : « مالِك » ، لَما كان ذلك لهما حُكْماً وإن لم يكن لهما فِعلاً .

وحجة قارئه قولُه ـــ عز وجل : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[3] فجعل « الْمُلْكَ » مملوكاً . وقال : « والأَمْرُ يومئذٍ لله »[4] وقوله : ﴿ يومَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شيئاً ﴾[7] .
فإن قيل : أيهما أبلغ ؟
قيل : قال بعضهم : « مالك » أبلغ ، لأنه يقال : مالك الدراهم والحيوانات والريح ، ولا يقال مَلِكُها .
وقيل : « الملك » أبلغ ، لأنه لا يكون إلّا مع تعظيم . وهما مختلفان في الحقيقة ، فإن الْمَلِك : هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين . والمالك : هو المتصرف في الأعيان المملوكة على أي وجهٍ كان .

فإن قيل : على أي وجه أضيف إلى اليوم ؟

قيل : أما « مِلِك » فعلى حد : ياسارق الليلة أهلَ الدار . في أنه اتسع للظرف فجعله مفعولاً به .

وأما « مالك » : فمضاف إلى المفعول به ، لأنه تعالى هو موجده وضابطه .

وإذا أضيف إلى « الوقت » غيرُ الله تعالى فيقال : فلان مالك يوم كذا ، فإنما هو على تَجَوُّز

---

(١) غافر : ١٦ .
(٢) الحج : ٥٦ .
(٣) آل عمران : ٢٦
(٤) ، (٧) الانفطار : ١٩ ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ .

ــ إذا كان حقيقة اليوم والوقت ليس بملك لغيره .

وأما اختصاص ذلك اليوم مع كونه في الحقيقة مالكاً لجميع الأشياء وفي جميع الأزمنة ــ لأمرين :

أحدهما : أنه قد ملَّكَ في الدنيا قوماً أشياءَ يَبْطُلُ عنها مُلْكُهُم لها يومَ القيامة ، ولذلك قال : ﴿ **لِمَن الْمُلْكُ اليوم** ﴾[1] ، وقال : ﴿ **نرثُ الأرض ومَن عَليها** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **والأمْر يومَئِذٍ لله** ﴾[3] .

والثاني : على وجه التعظيم ــ لأنهم يجعلون ما يستعظمونه مِلكاً له ، نحو : « بيتُ الله » وناقةُ الله . وتعظيمه إياه على وجه أن اليوم الآخر لا انقضاءَ له ولا فناء ، وجميع ما في الدنيا فانٍ ، وقد عُلِمَ أن الباقي أشرفُ من الفاني .

فأما « الدِّين » : فالجزاء ، كقوله : ﴿ **وإن الدِّين لواقع** ﴾[4] .

وقيل « الدِّين » : عبارة عن الشريعة ، كقوله : ﴿ **إن الدِّينَ عند الله الإسلام** ﴾[5] . ومعناه : يوم جزاء الدين .

وقيل « الدِّينُ » : الطَّاعةُ ، أي : يوم جزاءِ الطاعة . وخَصَّ الطاعةَ ، وإن كانت المجازاةُ عنها وعن المعصية لأمرين :

أحدهما : ان كل أحد يُطيعُه في ذلك اليوم ، ولذلك قال : ﴿ **إن كل من في السموات والأرض إلّا آتي الرحمن عبداً** ﴾[6] .

والثاني : أن الطاعة هي المقصودة بالجزاء ، ولأجلها خلقنا ، وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون** ﴾[7] .

---

(١) غافر : ١٦ .
(٢) مريم : ٤٠ .
(٣) الانفطار : ١٩ .
(٤)الذاريات : ٦ .
(٥) آل عمران : ١٩ .
(٦) مريم : ٩٣ .
(٧) الذاريات : ٥٦ .

وقريء : « مالكَ » ــ بالنصب ــ فقيل هو نداء[1] ــ فعلى هذا يقع في اللفظ عدول عن الخبر إلى الخطاب به . وقيل : نصبه على المدح والعدول إلى الخطاب يكون في قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ :

قال بعض النحويين[2] : « إِيَّاكَ » كُلُّهُ اسم واحد . وقال بعضهم[3] : الكاف هو الاسم . و « إيا » : وصْلَة له . وهذان لا تنافي بينهما في الحقيقة ، لأن ذلك بنظرين مختلفين ، وذاك أن الضمير المتصل إذا قُدِّم أو فُصِلَ بينه وبين المتصل به لا يَحْسُنُ النطقُ به مفرداً ، فضمّ إليه : « إيَّا» ، ليصيرَ بذلك كلاماً مستقلاً .

فمن قال : الضمير : هو الكاف ، فإنما اعتبر بذلك بعد انضمام « إيا » إلى الضمير والعرب كما أنهم يتحرون بالحروف المركبة إفادة المعنى ، فقد يأتون ببعضها تهذيباً للَّفظ وتحسيناً له ، بدلالة إدخالهم الحروفَ بين الحرفين المتنافرين في التركيب ، لِئَلا يَقْبُحَ التَّفَوُّه بهما . وذلك قد أشبع الكلام فيه في غير هذا الكتاب .

ف « إيا » : جُعِلَ وصْلَةً لتحسين اللَّفظ بالضمير إذا قُدِّمَ -لمَّا لم يَحْسُن أن يُقال : كَ ألزمت . وهُ ضربت كما أتوا بـ « ذي » لمَّا أرادوا الوصفَ باسم الجنس في نحو قولهم : « مَرَرْتُ برجلٍ ذي مال » . وأُتِيَ بـ « الذي » لما أُريدَ أن توصَفَ المعرفةُ بالْجُمَل . وعلى ذلك أُتِي بـ « مثل » مع « الكاف » لمَّا لم يحسُن إدخالُ الكاف على الضمير ، فيقال : كَكَ وكَهُ .

و « العبادة » : التذلل . ومنه : طريق معبَّد . وفي المتعارف . الاشتغالُ بالخدمة . قال تعالى :

---

(١) قال مكي بن أبي طالب في كتاب « الابانة »/٩٠ ــ ٩١ : « قرأ أبو صالح : « مالكَ يوم الدين » بألف والنصب على النداء . وكذلك قرأ محمد بن السَّميفَع ، وهي قراءة حسنة . وقرأ شريح بن يزيد الحضرمي أبو حيوة « ملكَ يوم الدين » بالنصب على النداء من غير ألِف » وقد أورد ذلك تحت عنوان « ذكر اختلاف الأئمة المشهورين غير السبعة في سورة الحمد مما يوافق خط المصحف ويقرأ به ، ولم أقرأ به » .

(٢) هو قول الكوفيين كما ذكره مكي بن ابي طالب في مشكل إعراب القرآن : ١١/١ .

(٣) قال مكي في مشكل الإعراب : ١٠/١ : « وحكى ابن كيسان أن الكاف هو الاسم و « إيَّا » أُتي بها لتعتمد الكاف عليها ، إذ لا تقوم بنفسها .

﴿ **إذ قال لبنيه ما تعبدونَ من بعدي** ﴾[1] . والعبد على ضربين :

ـــ عبد بالإيجاد والتسخير : وذلك يطلق على كل أحد ، وإياه عني بقوله تعالى : ﴿ **إنْ كُلُّ مَن في السموات والأرض إلّا آتي الرحمن عَبْداً** ﴾[2] .

ـــ وعبد على طريق التخصيص : وذلك قوله : ﴿ **إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[3] . واستثناهم إبليس بقوله : ﴿ **إلّا عبادَك منهم المخلَصين** ﴾[4] ، وقوله : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا** ﴾[5] .

فعلى الثاني : يصح أن يقال : فلان ليس عبدالله ، وعلى هذا قيل : فلان عبد الهوى ، وعبد الشهوة ، وعبد الطاغوت ، وقال تعالى : ﴿ **ومن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمِن بالله** ﴾[6] . وعلى ذلك قال عليه السلام : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم »[7] .

والاستعانة : طلب المعونة ، وهي ضربان : ضروري في الأمر . وغير ضروري :

فالضروري : مالا يتم إيجاد الفعل من دونه ، وبوجوده يوصف الإنسان بالاستطاعة للفعل . وبِعَدَمه يوصف بالعجز عنه وهي على القول المجمل أربعة :

بُنْيَة صحيحة للفاعل وتصوُّرُه للفعل ، وتَأَتّي مادةٍ له وآلة يعمل بها ، وذلك مُتَصَوَّر في الكاتب فإنه يحتاج إلى بُنْيَةٍ صحيحة ، وهي العضو . وإلى تصوُّرٍ لها وهو : المعرفة . وإلى آلاتٍ : كالدَّواة والقَلَم . وإلى مادَّةٍ توجِدُ الفعل فيها ، وهو الكاغد

وغير ضروري : وهو ما يصح إيجاد الفعل من دونه ، لكن ربَّما يكون فيه الصعوبةُ ، كمن يَقْصِدُ مكاناً بعيداً فَيُعيرُهُ صَديق له مركوباً ، فَيُسَهِّلُ عليه طريقَه .

---

(١) البقرة : ١٣٣ .

(٢) مريم : ٩٣ .

(٣) الحجر : ٤٢ .

(٤) الحجر : ٤٠ .

(٥) الفرقان : ٦٣ .

(٦) البقرة : ٢٥٦ .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد : باب الحراسة في الغزو في سبيل الله .

فغير الضروري لا يمكن حصرُه ، ويصح التكليف من دون وجوده ، وهو المعبَّر عنه بالتوفيق والتسهيل وتسميه العامة : سعادةَ الجَدِّ . وجودةَ البَخْت . وفي تيسير ودفع ضده يستعمل في كثير من الأدعية .

فإذا ثبت هذه الجملة ، فالاستعانة بالله : طلب الأمرينْ . فبحصول الضروريات من المعاون يتوصل إلى اكتساب الثواب . وبحصول غير الضروريات منها يتسهّل علينا السلوك إليها .

إن قيل : كيف قال : « إياك نعبد » ولو قال : « نعبدك » كان أوجز منه لفظاً ؟

قيل : إن عادتهم أن يقدموا من الفاعل والمفعول ما القصد الأول إليه ، والاهتمام متوجه نحوه ، وإن كان في ذكر الجملة القصدان جميعاً . تقول : بالأمير استخف الجند ــ إذا كان القصد الأول ذكر من وقع به استخفاف الجند ــ والأمير استخف بالجند ــ إذا كان القصد الأول إلى من أقدم على الاستخفاف بهم .

ولما كان القصد الأول ــ في هذا الموضع ــ ذكر المعبود دون الإخبار عن إيجاد عبادتهم ، كان تقديم ذكره أولى . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ **أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون** ﴾[1] . وأيضاً ففي تقديم ذكر المفعول إشارة إلى إثبات الحكم المذكور ونفيه عن غيره ، تقول : إليك أفزع ، تنبيهاً أني لا أفزع إلا إليك ، وإذا قال : أفزع إليك ، فليس فيه هذا المعنى . وعلى هذا فسّر ابن عباس فقال : معناه : لا نُوَحِّدُ غيرَك .

وقال بعضُهم : إنما نبّه ــ تعالى ــ بتقديم ذكره أن يكون نظر العباد من المعبود إلى عبادتهم له ، لا من العبادة إلى المعبود . وعلى ذلك فضّل ما حكى الله عن نبينا ــ عليه السلام ـ إذ قال : ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾[2] فنظر من الله تعالى إلى نفسه ــ على ما حكى عن موسى عليه السلام ـ حين قال : ﴿ **إن معي ربي** ﴾[3] فقدم ذكر نفسه ، ونظر منها إلى ربه .

إن قيل : لِمَ كرّر « إياك » ؟ .

---

(١) الزمر : ٦٤ .

(٢) التوبة : ٤٠ .

(٣) الشعراء : ٦٢ .

قيل : لأنه لو قال : إياك نعبد ونستعين ، لكان يصح أن يعتقد أن الاستعانة بغيره ، وكان إعادتُه أبلغ .

إن قيل : لِمَ قدَّمَ العبادةَ على الاستعانة ، وحَقُّ الاستعانة أن تكون مُقَدَّمة ، إذ لا سبيل إلى عبادته إلّا بمعونته ؟

قيل : قد قالوا : هو على التقديم والتأخير . وقيل : الواو لا يقتضي الترتيب .

والوجه — في ذلك — أن الله تعالى علّم خلقه بذلك ان يُقَدِّموا حقَّه ثُمَّ يَسْأَلوه ليكونوا مُسْتحقينَ لِلإجابة . ويجوز أن يكون قولُه : ﴿ وإيَّاكَ نستعين ﴾ : في موضع الحال ، نحو قول الشاعر :

بأيدي رجالٍ لم يشيموا سيوفَهم ولم يكثر القتلى بها حينَ سُلَّتِ[1]

فقوله « لم يكثر القتلى بها » : في موضع الحال .

قوله عز وجل : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ :

الهداية : دَلالة بلُطْفٍ . ومنه : الهديَّة . و « هَوادي الْوَحْش » إنما هو : مُقَدِّماتُها ، لكونها هاديةً لسائرِها . وخُصَّ ما كان دلالةً بـ « فعلت » نحو : هديتُه الطَّريقَ . وما كان من الإعطاء بـ « أفْعَلْتُ » نحو : أهْديتُ الهديَّة . وأهديتُ إلى البيت . ولما تُصُوِّرَ العروسُ على وجهين قيل فيه : هديتُ وأهْدَيْتُ فإن قيل ، كيف جعلتَ الهدى دَلالةً بِلُطف ، وقد قال تعالى : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ كُتِبَ عليه أنّه من تَوَلّاه فأنّه يُضِلُّه ويَهديه إلى عذاب السَّعير »[3]؟

قيل : إن ذلك على حسب استعمالاتهم اللفظ على التَّهَكُّم كما قال :

---

(١) البيت للفرزدق وهو في ديوانه : ١٣٩ . ومعنى « لم يشيموا » : لم يغمدوا .

(٢) الصافات : ٢٣ .

(٣) الحج : ٤ .

وخيـــلٍ قد دلــفتُ له بخيــلٍ تحيــةُ بَيْنِهِـــم ضربٌ وجيـــعُ[1]

والهداية : هي الارشادُ إلى الخيرات قولاً وفعلاً ، وهي من الله تعالى على منازل بعضُها يُرَتَّبُ على بعض ، لا يصح حصول الثاني إلّا بعد الأول ، ولا الثّالث إلّا بعد الثاني :

فأول المنازل : إعطاؤه العبدَ القوى التي بها يهتدي إلى مصالحه : إما تسخيراً ، وإما طَوْعاً . كالمشاعر الخمسة ،والقُوَّة الفكرية وبعض ذلك قد أعطاه الحيوانات ، وبعضُه خَصٌّ به الإنسان .

وعلى ذلك دَلَّ قولُه تعالى : ﴿ أعطى كُلَّ شيءٍ خلْقَه ثُمَّ هدى ﴾[2] . ، وقوله تعالى : ﴿ الذي قَدَّر فهدى ﴾[3] . وهذه الهداية : إما تسخير ، وإما تعليم . وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : ﴿ وأوحي ربُّكَ إلى النَّحلْ ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ بأنَّ رَبَّكَ أوْحى لها ﴾[5] . وقال في الإنسان ـــ بما أعطاه من العقل وعرَّفَه من الرشد : ﴿ إنَّا هَدَيْناهُ السَّبيل ﴾[6] وقال : ﴿ وهَدَيناهُ النَّجْدَين ﴾[7] وقال في ثمود : ﴿ فَهَدَيْناهُم فاسْتَحَبُّوا العَمى على الهُدى ﴾[8] .

وثانيها : الهداية بالدُّعاء وبعْثَةِ الأنبياء ، وإيَّاها عني بقوله تعالى : ﴿ وَجَعلْناهُم أئِمَّةً يَهْدونَ بأمْرنا ﴾[9] وبقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هاد ﴾[10] وهذه الهداية تُنْسَبُ تارةً إلى الله ـــ عز وجل ـــ

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب كما في الكتاب : ١/٣٦٥ ـــ ٣٦٦ ، ٤٢٩ ، وقال فيه الشنتمري : الشاهد فيه جعل الضرب تحية على الاتساع .. يقول : إذا تلاقوا في الحرب جعلوا بدلاً من تحية بعضهم البعض الضرب الوجيع ، ومعنى « دلفت » : زحفت . والدليف : مقاربة الخطو في المشي . وانظر : نوادر أبي زيد : ١٥٠ ، والمقتضب : ٢/٢٠ ، ٤/٤١٣ ، والخصائص : ١/٣٦٨ .

(٢) طه : ٥٠ .

(٣) الأعلى : ٣ .

(٤) النحل : ٦٨ .

(٥) الزلزلة : ٥ .

(٦) الانسان : ٣ .

(٧) البلد : ١٠ .

(٨) فصلت : ١٧ .

(٩) الأنبياء : ٧٣ .

(١٠) الرعد : ٧ .

وتارةً إلى النبيِّ ـ عليه السلام ـ وتارةً إلى القرآن قال تعالى : ﴿ **إنَّ هذا القرآنَ يَهْدي لِلتّي هي أقْومَ** ﴾[1] .

وثالثها : هداية يوليها صالحي عباده بما اكتسبوه من الخيرات . وهي الهداية المذكورة في قوله ـ عز وجل ـ ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[2] وقوله : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فَبِهُداهُم اقْتَدِه** ﴾[3] وقوله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا** ﴾[4] وهذه الهداية هي المعنيَّةُ بقوله : ﴿ **ونجعل لكُم نوراً تمشونَ به** ﴾[5] ، ويَصِحُّ أنْ تُنْسَبَ هذه الهدايةُ إلى الله ـ عز وجل ـ فيقال : هو آثَرَهُم بها ، من حيثُ إنَّه هو السبب في وصولهم إليها . ويَصِحُّ أن يقال : اكتسبوها من حيثُ إنهم توصَّلوا إليها باجتهادِهم . فَمَنْ قَصَدَ سلطاناً مسترفداً فأعطاه يَصِحُّ أن يقال : إن السُّلْطانَ خَوَّله . ويَصِحُّ أن يقال : فلان اكْتَسَبه بِسَعْيه ، ولانْطِواءِ ذلك على الأمرين ، قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم** ﴾[6] . وقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾[7] فنبَّه أن ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً .

وهذه الهدايةُ يَصِحُّ أن يقال : هي مباحة للعُقلاء كُلِّهم . ويَصِحُّ أن يُقال : هي محظورة إلَّا على أوليائه ، لما كان في إمكان جميع العُقلاء أن يترشحوا لِتَناولها ، وَمِنْ قِبَلِ أنها لا يَسْهُل تُناوُلها قبـل أن، يَتشَكَّلَ الانسانُ بشكلٍ مخصوصٍ بتقديم عبادات .

وقد قال بعضُ المحققين : الهُدى مِن الله كثير ، ولا يُبْصِرهُ إلّا البصير ، ولا يعملُ به إلاَّ اليسير . ألا ترى إلى نجوم السماء ما أكثرَها ، ولا يهتدي بها إلَّا العُلماء . وقال بعضُ الأولياء : إن مَثَلَ

---

(١) الاسراء : ٩ .
(٢) الحج : ٢٤ .
(٣) الانعام : ٩٠ .
(٤) العنكبوت : ٦٩ .
(٥) الحديد : ٢٨ .
(٦) محمد : ١٧ .
(٧) يونس : ٩ .

هداية الله مَع الناس كَمَثَلِ سَيْلٍ مَرَّ على **قِلاتٍ**[1] وغُدران[2] فيتناولُ كُلَّ قَلْتٍ منها بقدر سعته ، ثم تلا قوله : ﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدَرِها** ﴾[3] . وقال بعضهم : هي كمطر أتى على أرضين فتنتفع كل أرض بقدر ترشيحها للانتفاع .

والمنزلة الرابعة من الهداية : التمكينُ من مُجاورتِه في دار الخلد . وإيَّاها عني الله تعالى بقوله : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار ، وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا** ﴾[4]

فإذا ثبت ذلك : فَمِن الهدايةِ مالا ينفي عن أحدٍ بَوَجه . ومنها ما يُنْفَى عن بعض ويُثْبَت لِبَعْض . ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾[5] وقال : ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾[6] وقال : ﴿ **وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم** ﴾[7] ، فإنه عني الهداية التي هي : التوفيق ، وإدخال الجنة دون التي هي الدُعاء ، لقوله تعالى : ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾[8] .

وقال ــ في الأنبياء ــ : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾[9] . فقوله : ﴿ **اهْدنا الصراط المستقيم** ﴾ : فُسِّر على وجوه بحسب أنظارٍ مُخْتَلِفَةٍ إلى الوجوه المذكورة :

الأول : انه عنى الهدايةَ العامة ، وأمر أن ندعُو بذلك ، وإن كان هو قد فَعَلَه لا محالة ، ليزيدنا ثواباً بالدُّعاء ، كما أمرنا أن نقول « اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد » .

---

(١) قال في المعجم الوسيط : « القَلْتُ » : النُّقرة في أرض وبدن ، يقال : قَلْتُ السَّيل : للحفرة في صخرة يستنقع فيها ماؤه ... جمعها : « قلات » .

(٢) الغدران : جمع « غدير » وهو : القطعة من الماء يغادرها السَّيْل .

(٣) الرعد : ١٧ .

(٤) الأعراف : ٤٣ .

(٥) القصص : ٥٦ .

(٦) البقرة : ٢٧٢ .

(٧) النمل : ٨١ .

(٨) الشورى : ٥٢ .

(٩) الأنبياء : ٧٣ .

الثاني : قيل : وَفِقْنا لِطَرِيقَةِ الشَّرْع .

الثالث : احْرُسْنا عن اسْتِغواءِ واستِهواءِ الشهوات ، واعْصِمْنا من الشُّبهات .

الرابع : زدنا هُدىً استنجاحاً لما وَعَدْتَ بقولك : « ومَنْ [يُؤْمِن بالله] يَهْدِ قَلْبَه »(*) وقولك : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾[1] .

الخامس : قيل : علمنا العلم الحقيقي ، فذلك سبب الخلاص ، وهو المعبر عنه بالنور في قوله تعالى : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾[2] .

السادس : قيل : سؤال الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾[3] ، وقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾[4] الآية .

فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها . والجميع يصح أن يكون مراداً بالآية ، إذ لاتنا في بينها . وبالله التوفيق .

وقوله : ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ يقال : الصراط ، والسراط ، والزراط . والأصل : من سرطت الطعام ، وزردته : إذا ابتَلَعته . وسمّي الطريق بذلك تصوراً انه إما أن يبتلعَه سالكُه ، أو يبتلع هو سالكَه . ألا ترى أنه قيل : فلان أَكَلَتْهُ المفازة ــ إذا أَضْمَرَتْه أو أَهْلَكَتْه .

وأَكَلَ المفازة ــ إذا قطعها ــ وعلى هذا النحو قال :

رَعَتْهُ الفيافي بعدما كان حِقْبَةً رَعاها وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ[5]

(*) التغابن : ١١ .

(١) محمد : ١٧ .
(٢) النور : ٣٥ .
(٣) محمد : ٥ .
(٤) يونس : ٩ .
(٥) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي : ١/٢٢٢ وقد قال في شرحه : المعنى أنه قُطِعَت عليه القفار من الأرض فهزُلَ بعدما كان سميناً ، فكأنها رعَتْهُ بعدما رعى نبتَها .

ويقال : قتل أرضاً عالِمُها . وقتلت أرض جاهلَها .

وسمي الطريق : « اللَّقَم » و « الملْتَقِم » ــ**على هذا النحو ــوذلك في معنى : « الملقوم »** كالنقض والرفض في معنى « المنقوض » و « المرفوض » .

و « المستقيم » : القائم بالقسط . قال أمير المؤمنين علي :

صراط إذا اعوجَّ المواردُ مستقيمُ

وذلك قد تصور على وجهين :

أحدهما : انه إشارة إلى أن الطريق المستقيم [واحدة] بإضافتها إلى طرق[1] الضلال الكثيرة[2] . وعلى هذا قال تعالى : ﴿ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[3] . وروي أن النبي ــ ﷺ قال :

« ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعوجوا » ثم قال : « الصراط : الإسلام ، والستور المرخاة : محارم الله . وذلك الداعي : القرآن »[4] .

وعلى هذا فسّرت الآية : فقيل : الصراط المستقيم : القرآن . وقيل : الإسلام وقيل : سنة النبي ﷺ وهذا كله إشارة إلى شيء واحد وإن اختلفت العبارات .

والثاني : أن طرق النجاة بإضافة بعضها إلى بعض كثيرة ، لكن بعضها أقصد ، وبعضها أبعد . وأقصد الطريق : المستقيم الذي هو طريق السابقين دون طريق المقتصدين الظالمين ، وإن كانا مؤديين إلى النجاة أيضاً ، لكنهما أبعد . ألا ترى أنه قال تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين**

---

(١) كما في « ع » وفي « خ » : طريق .

(٢) كما في « ع » وفي « خ » : كثيرة .

(٣) الأنعام : ١٥٣ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ١٨٢/٤ من حديث النواس بن سمعان وإسناده صحيح . وأخرجه الحاكم في مستدركه ٣١٨/٢ ، وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي . وأخرجه الترمذي بلفظ قريب منه تحت رقم (٢٨٦٣) في الأمثال باب رقم (١) وقال : هذا حديث حسن غريب .

اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ﴾[1] ـ الآية ـ فجعل ثلاثتهم مصطفين ولكون بعض الطرق أقرب من بعض ، قال عليه السلام في قوم : **﴿ إنهم يدخلون الجنة قبل آخرين بكذا سنة ﴾**[2] .

قوله عز وجل : **﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾** :

الإنعام : إيصال الإحسان إلى الغير . والنِّعمة ـ يقال فيما يرتضيه العقل وإن كان كريه المحتمل ـ والنُّعمة ـ يقال فيما يستلذه الهوى . وإن كان كريه العاقبة ـ هذا هو الحقيقة ، وإن كان قد يعد الانسان سوء تصوره بعض ما يستذله هواه نعمة ، وإن كان وخيم العقبى .

ونعمة الله ، وإن كانت لا تحصى ، كما قال تعالى : **﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**[3] فهي بالقول المجمل ضربان :

دنيوي وأخروي .

فالدنياوي : ضربان : موهبي ومكتسبي .

فالموهبي : ثلاثة :

ـ اشرفها : العقل وقواه من الفهم والحفظ والفكر والنطق .

ـ ثم البدن وقواه من الصحة والقوّة والجمال والكمال .

ـ ثم ما يكنفه من خارج المال والجاه والأقارب والأصدقاء .

وأما المكتسب فأربعة :

ـ الحكمة .

---

(١) فاطر : ٣٢

(٢) لعله يريد بذلك مثل الروايات التي ذكرها الترمذي في كتاب الزهد : ٣٦/٤ ـ ٣٧ والتي منها : عن أبي هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ : « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام » وقد علّق عليه الترمذي بقوله : وهذا حديث صحيح . وانظر بقية الروايات في كتاب الزهد .

(٣) النحل : ١٨ .

ـــ والعفة وعنها يصدر الجود .

ـــ والنجدة . وعنها يصدر الصبر .

ـــ والعدالة . وهي ثلاث :

عدالة في نفس الإنسان ، وذلك بأن يجعل هواه تابعاً لعقله .

وعدالة بين العبد وخالقه ، وذلك في توفية حق العبادات .

وعدالة بين كل إنسان وغيره في المعاملات .

وهذه الأربعة ينطوي عليها العبادة المأمور بها في قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[1] .

وأما الأخروي : فرضى الخالق . ومعاشرة الملائكة . وبقاء الأبد . والغنى عن كل حاجة إلا إليه تعالى .

وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : ﴿ **وأعدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[2] . فالنعمة الحقيقية التي لا غناء عنها ، ويقال لها : الخير المطلق هي الأخروية .

فأما الدنيوية فضربان :

ضرب هو نافع ضروري في الايصال إلى الخير المطلق ، وهي المكتسبات ، فإنها ضرورية فيه ، إذ لا يمكن الوصول إلى نعيم الآخرة إلا بها أو ببعضها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾[3] .

---

(١) البينة : ٥ .

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) البينة : ٧ ـــ ٨ .

(٣) آل عمران : ٩٢ .

وضرب غير ضروري ، وقد يكون تارة نافعاً في بلوغ المقصود ، وتارة ضارّاً فيه ، نحو المال والجاه والقوة والجمال ، ولذلك لا يقال في المال : إنه نعمة على الاطلاق ، لأنه قد يكون نعمة لزيد ، ونقمة على عمرو . ولهذا قيل : رب مغبوط بأمر وهو داؤه . ومرحوم لأمر هو شفاؤه . ولذلك قال بعض الصالحين : يامن منعه عطاء . وقال آخر : يامن لا يستحق بمنعه الشكر سواه . وعماد ذلك كله في إيصالنا إلى المقصود من نعيم الآخرة ــ توفيقُ الله عز وجل - فقد قيل لبعض الحكماء : ما الذي لا يستغني عنه في كل حال ؟ فقال : التوفيق .

إذا ثبت معرفة أنواع النعم ، علم أن قوله تعالى : ﴿ **الذي أنعمت عليهم** ﴾ : يعني به من سهلت عليهم طريق الفوز بإعطائهم ما يمكنهم منه ، ومنعهم ما يثبطهم عنه .

ومن المفسرين من قال : أراد به عرفهم مكائد الشيطان وخيانة النفس .

ومنهم من قال : عني الإنعام عليهم بالعلم والفهم .

وكل هذا أبعاض للحكمة . فالوجه : أن يجري ذلك على العموم في كل ما صح أن يكون نعمة بدلالة قوله تعالى : ﴿ **وأسبغ عليكم نعمهُ ظاهرة وباطنة** ﴾[1] .

وهؤلاء المنعم عليهم : المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح** ﴾[2] الآية .

وقوله عز وجل : ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ :

أصل « الغضب » : غليان دم القلب إرادة الانتقام . ومبدأ الغضب : انفعال مكروه بدلالة قوله عليه السلام : « **إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار** »[3]. وقال عليه السلام : « **اتقوا الغضب فإنها جمرة توقد في قلب ابن آدم . ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه ، وحمرة عينيه . فمن وجد من ذلك شيئاً فليلزم الأرض** »[4].

---

(١) لقمان : ٢٠ .

(٢) مريم : ٥٨ .

(٣) أخرجه ابو داود تحت رقم /٤٧٨٤/ في الأدب كما أخرجه احمد في مسنده /٤/٢٢٦ .

(٤) أخرجه الترمذي من حديث طويل عن ابي سعيد الخدري تحت رقم /٢١٩١/ في كتاب الفتن ٤/٤٨٣ ــ ٤٨٤ ــ كما أخرجه أحمد في مسنده : ٣/١٩ ، ٦١ .

والغضب : و « الغم » : ثوران النفس — وهما من أصل واحد — إلا انه متى كان معه الطمع في الوصول إلى الانتقام كان غضباً وإذا كان معه الطمع كان غمّاً . فإذاً : الغم والحزن : هما ما ينال الإنسان ممن فوقه . والغضب ممن دونه ، فيختلفان بالإضافة لا بالذات . ولهذا قال بعض المحدثين : فحزن كل أخي حزن أخو الغضب .

فإذا ثبت ذلك ، فالغضب من الصفات التي لو خلينا ومجرد العقل لم نُجَوّز وصفَ الباري عز وجل بها ، لكن أطلقنا عليه ذلك لمَّا جسَّرنا السمعُ وفسحَ لنا الشَّرْعُ على معنى صحيح هو أنه قد تقدَّم ان الصفاتِ — التي مبدؤها انفعالات ، ومنتهاها فِعْل — متى وصف الباري تعالى به أريد به المنتهى دون المبدأ . فإذاً المراد بالغضب في صفته تعالى : إرادةُ الانتقام . وعلى هذا فسر المتكلمون :

فقال بعضهم : هو إرادة الانتقام . وقال بعضهم : هو ذم العصاة وقال بعضهم : هو جنس من العقاب . وقال بعضهم : هو استجازة البطش لاستنكار أمر . وقال بعضهم : هو الانتقام .

وهذه التفاسير عنهم متقاربة لنظرهم منه إلى منتهى الغضب دون مبدئه .

وأما الضلال والخطأ : فالعدول عن الصراط المستقيم وعن الصواب ، سواء كان العدول عن ذلك عمداً أو سهواً ، وسواء كان يسيراً أو كثيراً .

والصواب من الشيء يجري [مجرى المقرطس][1] من المرمي في أنه هو الصواب . وباقيه ضلال وخطأ ، ولهذا قال الحكماء : كوننا أخياراً من وجه . وكوننا أشراراً من وجوه كثيرة . ولهذا روي عن بعض الصالحين أنه رأى النبي — ﷺ — في منامه ، فقال له : **ما الذي شيّبك يارسول الله — حيث قلت شيبتني هود وأخواتها — ؟ فقال : مثل قوله « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك »**[2] ، ولصعوبة الصواب وكونه واحداً ، قال عليه السلام : « **استقيموا ولن تحصوا** »[3] ، وعلى هذا النظر قال : « **من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله**

---

(١) في الأصل : القرطاس ، والتصحيح من كتاب « المفردات » للمؤلف . والمقرطس : المصيب في رميه .
(٢) هود : ١١٢ .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده : ٢٧٧/٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ وابن ماجه في الطهارة : ٤ والدارمي في الوضوء : ٢ والموطأ في الطهارة : ٣٦ .

أجر »(*) .

فإذا ثبت أن كل عدول عن الغرض والمقصود يقال له خطأ وضلال ، وأن الصواب في نهاية الصعوبة علم أنه ليس كل ضلال وخطأ يستحق به العقاب الدائم . بل كما قد يسمى أكبر الكبائر ، نحو : الكفر ضلالاً وباطلاً وخطأ ، وقد يسمى بذلك أصغر الصغائر .

فلا يجب أن يشككنا مشكك إذا رأينا بعض الأولياء موصوفاً بضلال وخطأ ، كما رأينا الكافر موصوفاً بهما فقد يتقارب الوصفان حداً ، وموصوفاهما متباعدان . فغرض الضلال والخطأ عريض ، والتفاوت بين أدناه وأقصاه كثير . ولذلك قال تعالى للنبي ـ ﷺ ـ : **﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾**[1] أي : وجدك غير مهتد إلى ما سيق إليك من النبوّة والعلم ، ونحو قوله : **﴿ وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾**[2] . وقد يعبر عن سوء الاختيار بالضلال نحو قوله : **﴿ فعلتها إذاً وأنا من الضالين ﴾**[3] . ويعبر عن الخيبة بالضلال والغيّ والخطأ كما قال في الكفار : **﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾**[4] .

فإذا ثبت ذلك ، فقد روي عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « المغضوب عليهم » ـ ههنا : اليهود . و « الضالين » : النصارى . ودلّ على ذلك قوله في اليهود : **﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾**[5] وقوله في النصارى : **﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل ﴾**[6] .

(*) أخرجه البخاري ٢٦٨/١٣ في كتاب الاعتصام ومسلم في الأقضية تحت رقم ١٧١٦ ، وأبو داود تحت رقم/٣٠٧٤ في الأقضية عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال قال رسول الله ـ ﷺ : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » وأخرجه الترمذي تحت رقم /١٣٢٦ في الأحكام والنسائي في القضاء ٢٢٤/٨ عن أبي هريرة .

(١) الضحى : ٧ .

(٢) آل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ .

(٣) الشعراء : ٢٠ .

(٤) القمر : ٤٧ .

(٥) المائدة : ٦٠ .

(٦) المائدة : ٧٧ .

إن قيل : كيف فسر على ذلك ، وكلا الفريقين ضال ومغضوب عليه ؟

قيل : هو كذلك ، لكن خصّ تعالى كُلّ فريق منهم بصفة كانت أغلب عليهم ، وإن شاركوا غيرهم في صفات ذم .

إن قيل : ما الفائدة في ترادف الوصفين ، وأحدهما يقتضي الآخر ؟

قيل : إن اقتضاء أحدهما الآخر من حيث المعنى ، وليس من شرط الخطاب ، أن يقتصر في الأوصاف على ما يقتضي وصفاً آخر دون ذلك الآخر . ألا ترى أنك تقول : « حي ، سميع ، بصير » ، والسمع والبصر يقتضي الحياة . ثم ليس من شرط ذلك أن يكون ذكره لغواً . وإنما ذكر « غير المغضوب عليهم » ، لأن الكفار قد شاركوا المؤمنين في إنعام كثير . فبيّن بالوصف أن المراد بالدعاء ، ليس هو النعم العامّة ، بل ذلك نعمة مخصوصة .

وقوله « غير » ــ إذا خفض : فصفة ، ويصح أن يوصف ما فيه الألف واللام ، ويدل على الجنس ب « غير » و « مثل » وأخواتها ، لكونه قريباً من النكرة . ولا يصح أن يوصف به ما فيه الألف واللام ودلّ على العهد ، ولا سائر المعارف .

ويجوز حفضه على البدل : وإذا نصب : فحال : إما من الضمير في « عليهم » أو من « الذين » . قال الأخفش : ويصح أن يكون استثناء[1] . ولم يجوز ذلك الفرّاء[2] ، لأن الاستثناء لا يعطف عليه بـ « لا » ، لا تقول : رأيت القوم إلا زيداً ولا عمرواً . قال أبو علي الفسوي ــ رحمه الله ــ : من جعله استثناءً فإنه يقول : أدخل عليه « لا » ــ حملاً على المعنى ، لأن معنى قولهم : « أتاني القوم إلا زيداً » : أتوني لا زيداً . وتجعل « لا » زائدة . وزلّ أبو علي الجبائي في

---

(١) قال الأخفش في معاني القرآن : ١٨/١ « وقد قرأ قوم « غيرَ المغضوب عليهم » جعلوه على الاستثناء الخارج من أول الكلام ــ ولذلك تفسير سنذكره إن شاء الله : وذلك أنه إذا استثنى شيئاً من أول الكلام في لغة أهل الحجاز فإنه ينصب ، يقول : ما فيها أحد إلّا حماراً . وغيرهم يقول هذا بمنزلة ما هو من الأول فيرفع . فذا يجرّ « غير المغضوب » في لغته . وإن شئت جعلت « غير » نصباً على الحال لأنها نكرة والأول معرفة ، وإنما جرّ لتشبيه « الذي » بـ « الرجل » وليس هو على الصفة بحسن ، ولكن على البدل نحو : « بالناصية . ناصيةٍ كاذبة » .

(٢) انظر قول الفرّاء في معاني القرآن : ٨/١ .

قوله : « غير المغضوب عليهم » زلة عظيمة في النحو ، وقال : ذكر « المغضوب » بلفظه المفرد ، وهو يعني الجماعة قال : إلّا أن هذا يجوز في سعة الكلام . وخفي عليه ان المتعدّي بالجار يدخل التثنية والجمع على الضمير المتصل به دون لفظ المفعول .

وقوله : « آمين » : قيل : هو اسم الفعل ، كصهٍ ، ولهٍ . ومعناه : استجب ـــ وذلك عن الحسن ـــ وإليه ذهب الأخفش ويدل على كونه اسم فعل ما روي ان موسى كان يدعو وهارون ـــ عليهما السلام ـــ كان يؤمّن ، فقال تعالى : ﴿ **قد اجيبت دعوتكما فاستقيما** ﴾[1] فكما أن قول موسى : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم** ﴾[2] الآية جملة وكذلك قول هارون : آمين : جملة من حيث المعنى .

وقال مجاهد وابن جبير وجعفر بن محمد : هو اسم من اسماء الله ـــ عز وجل ـــ وقال أبو علي الفسوي : تأويل ما قالوه : إن هذا الاسم لما تضمن الضمير المرفوع ، وهو ذكر الله ، قالوا : هو اسم الله ، لا أن الكلمة كما هي : اسمه .

وما روي عن أمير المؤمنين ـــ عليه السلام ـــ قال : آمين : خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده . فقد قيل : إن ذلك ليس بتفسير لآمين ، وإنما هو وصف له .

ومن قال : آمين بالمد : فقد قال الأخفش : هو اسم أعجمي نحو « حاميم » . وقال محمد بن يزيد : هو على مثال عاصين ، وليس يعني أنه جمع ، ولا أن النون فتحت كما فتحت في « عاصين » ، وإنما يريد : أن لفظه كلفظه ، وقيل إن الألف : زيادة للمد ، نحو : « ينباع » و « انظور » في : « ينبع » و « انظر » .

---

(١) يونس : ٨٩ .

(٢) يونس : ٨٨ .

سـورة البقـرة

قوله ـ عز وجل ـ : « الم » :

اختلف الناس في الحروف التي هي في أوائل السورة ، فقالوا فيها أقوالاً جُلُّها مراد باللفظ وغير متناف على السبر ، لكن بعضها مفهوم بلا واسطة ، وبعضها مفهوم بواسطة . فنقول ـ وبالله التوفيق :

إن المفهوم من هذه الحروف ـ الأظهر بلا واسطة ما ذهب إليه المحققون من أهل اللغة ، كالفرّاء[1] وقطرب[2] ـ وهو قول ابن عباس وكثير من التابعين على ما نبينه من بعد ـ وهو أن هذه الحروف لما كانت هي غنصر الكلام ومادته التي تركب منها ، بيّن تعالى أن هذا الكتاب من هذه الحروف التي أصلها عندكم ، تنبيهاً على إعجازهم ، وأنه لو كان من عند البشر لما عجزتم مع تظاهركم ـ عن معارضته .

وأما اختصاص هذه الحروف ، وهذا العدد المخصوص ، وكونها في سور معدودة ، وجعل بعضها مفرداً ، وبعضها ثنائياً ، وبعضها ثلاثياً ورباعياً وخماسياً ، ثم لم يتجاوز ذلك ، واختصاصها ببعض الحروف دون بعض ، ففيها عجائب وبدائع . إذا اطُّلِعَ عليها ، علم أنه كما وصفه تعالى بقوله : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾[3] .

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ وكان زعيم الكوفيين بعد الكسائي ولقب بالفرّاء لأنه كان يفري الكلام ، أي : يحسن تقطيعه وتوصيله .. توفي سنة /٢٠٩/ هـ له « معاني القرآن » وكتب أخرى كثيرة .

(٢) هو أبو محمد علي بن المستنير بن أحمد نشأ بالبصرة ، ولم تذكر المصادر تاريخ ولادته ، بل ذكرت تاريخ وفاته وهو سنة ٢٠٦ هـ .. تتلمذ على يدي سيبويه وهو الذي اطلق عليه لقب « قطرب » إشارة إلى الدويبة التي تدب ولاتزال تفتر لما كان من إقبال أبي علي على دروس سيبويه يسبق إليها غيره من طالبي العلم ، فكان يبكر حتى قال له أستاذه يوماً : « ما أنت إلّا قطرب ليل » من مؤلفاته : معاني القرآن ـ المجاز في القرآن ـ الرد على الملحدين في تشابه القرآن-غريب الحديث ـ الاشتقاق ـ الأصوات المثلثات ـ الأضداد ـ القوافي ـ الصفات ـ الهمزة ـ العلل في النحو ـ فعل وافعل ـ الأزمنة .. » .

(٣) فصلت : ٤٢ .

والقول في ذلك : ان حروف التهجي قيل : ثمانية وعشرون . وقيل : تسعة وعشرون . وهذا الخلاف من حيث إن « الألف » حرف لا صورة له في اللفظ حتى قال بعض الناس : الألف ـ في حروف التهجي ـ حرف لا ساكن ولا متحرك ، وإنما هو مدّ لا اعتماد له .

وقيل : إن الله تعالى جعل هذه الحروف طبقاً للعدد الذي هو أصل العلوم ، ولو توهم ارتفاعه ارتفع سائر العلوم لأن عقود الأعداد ثمانية وعشرون : آحاد وهي تسعة . وعشرات : وهي تسعة . ومائات وهي تسعة وألف : وهو واحد ، ثم الباقي مكررات . وجعلها أيضاً طبقاً لمنازل القمر ، وهي ثمانية وعشرون إلى غير ذلك من العجائب .

وأما « لام الألف » : فمركب من حرفين ، ولا اعتداد به في حصر المفردات . وقد قال بعض النحويين : إن ذلك يجب أن يقال : « لا » ، وذاك أنهم لما أرادوا تعريف صورة لفظ الألف مفردة ، ولم يكن سبيل إلى التفوّه به مفرداً ، إذ لا يكون إلا مَدّةً ، ضمّ إليها اللام ليمكن النطق به . وخصّ بذلك اللام لعلّة مذكورة في موضعها .

فإذا ثبت ذلك فقد قيل : إن السور التي ذكر في أوائلها هذه الحروف تسع وعشرون ، وجعل ذلك تنبيهاً على عدد حروف التهجي ـ إذا عدّ فيها الألف ـ وقد ذكر هذه الحروف مفردة وثنائية إلى الخماسية تنبيهاً أن الكتاب المنزل على رسوله مركب من كلماتهم التي أصولها : إما مفرداً ، وإما ثنائياً ـ إلى الخماسي ـ وأن أصول أبنية كلامهم لا يتجاوز ذلك .

وجاء ثلاث سور مفتتحة بمفردات ، وتسع سور بالثنائيات . وثلاث عشرة سورة بثلاثيات وسورتان برباعيات . وسورتان بخماسيات وذلك « ص » و « ق » و « ن » و « طه » و « يس » و « طس » . وست من الحواميم ، و « الم » في ست سور و « الر » في خمس سور . و « طسم » في سورتين و « المر » و « المص » و « كهيعص » و « حم عسق » فجعل عدد الثلاثي اكثر تنبيهاً أن اكثر تراكيب كلامهم الثلاثي . وباقيها أقل .
وإنما جعل الثلاثي ثلاثة عشر تنبيهاً أن اصول الثلاثي المستعملة : ثلاثة عشر : منها للاسماء المستعملة وذلك : « فَعْل » كَفَلْس . و « فُعْل » كقُفل . و « فِعْل » كقرد . و « فَعَل » كجمل . و « فَعُل » كعضُد . و « فَعِل » كَكَتِف . و« فُعُل » كعُنُق ، و (فِعِل) كإبِل ، و « فِعَل » كعِنَب ، و (فُعَل) كصُرَدَ) ، وثلاثة للأفعال : « فَعَل » و « فَعُلَ » و « فَعِلَ » .

ولم يعتد بـ « فُعِلَ » : أما في الأسماء ، فلأنه لم يوجد ما يعتدّ به .

وأما في الأفعال : فإن الفعل في الأصل أن يبني للفاعل ويسند إليه دون المفعول

وأما التسعة الثنائية ، فتنبيهاً أن ما جاء من الكلم على حرفين تسعة أضرب :

ــ ثلاثة للحروف : « ان » و « من » . وهذا إذا جَرَّ بِهِ .

ــ وثلاثة للأسماء : « من » و « إذ » وهذا إذا رَفَع به .

ــ وثلاثة للأفعال في الاستعمال ، نحو « قل » و « بع » و « خف » .

وأما الثلاثة المفردة : فتنبيهاً أن الحروف ثلاثة أضرب : مفتوح ومكسور وساكن ، نحو : له وبه ، ولام التعريف .

وأما الرباعيان والخماسيان ، فتنبيهاً أن لكل واحد منهما ساكن أصلاً ، وملحقاً به . أما الأصل : فكجعفر وسفرجل وأما الملحق بهما : فكقرد ، وحجنكل .

واقتصر من حروف التهجي على النصف منها ــ وهو اربعة عشر حرفاً من غير تكرير ــ لتدل على حكم عجيبة . ولما خص نصفها بالذكر أورد فيها من الحروف المجهورة والمهموسة والشديدة وما ليس بشديدة ، واللينة ، والمطبقة ، وحرف البدل ، ومالا يصح فيه الإدغام ، ومالا يدغم فيما قاربه ، ويدغم ما قاربه فيه ، ومن حروف اللقلقة ، ومن الحروف التي للعرب دون العجم ، من كل ذلك ما هو زوج واحتمل التنصيف فإنه أخرج نصفه ، ومن كل ما هو فرد لا يحتمل التنصيف نصَّفه بإسقاط حرف أو زيادة حرف .

وأما الحروف الذلقية والحلقية ، والزوائد ، فقد زيد فيها على النصف بخاصية فيها :

من ذلك : الحروف المجهورة : وهي ما أشبع الاعتماد على منبعه ، ولم يجر معه النفس . وهي تسعة عشر حرفاً يجمعها : زاد ظبي غنج لي ضموراً إذ قطع[1] . أسقط منها الألف الزائدة التي قيل فيها : انه لم يعتد بها من حيث لا تكون إلا مَدَّةً ، وذكر نصفها في هذه الأربعة عشر[2] ،

---

(١) وهي : الزاي ، والدال ، والظاء ، والباء ، والياء ، والغين ، والنون ، والجيم ، واللام ، والياء ، والضاد ، والميم ، والواو ، والراء ، والذال ، والقاف ، والطاء ، والعين ، والألف .

(٢) يريد بأربعة عشر أي : التي ذكرها القرآن في فواتح السور .

وهي تسعة يجمعها « لن يقطع أمر » .

والمهموسة : وهي : ما ضعف الاعتماد على منبعه ، وذلك عشرة يجمعها : « ستشحثك خصفه » ذكر منها في هذه الأربعة عشر نصفها ، وهي ما يجمعها : « صه حسك » .
والشديدة : وهي ثمانية يجمعها « أجَدْتَ طَبَقَك » ذكر نصفها ويجمعها « أقطك » وباقيها [رخوة][1] وهو : أحد وعشرون ، إذا سقط منها الألف فنصفها عشرة يجمعها « حمس على نصره » .

واللينة حرفان ــ سوى الألف ــ: الواو والياء[2] وفي هذه الأربعة عشر أحدهما : وهو : الياء .

والمطبقة أربعة : ص ، ض ، ط ، ظ . ذكر اثنان منها ، وهي : الصاد ، والطاء .

وحروف البدل اثنا عشر حرفاً ــ فيما ذكره سيبويه ــ يجمعها : « اجد طويت منها » : ذكر منها ستة يجمعها « اهطمين » وترك باقيها . وانما لم يجر مجرى غيرها في أن ترك منها الألف ثم نصّف ، بل زيد لأمر اختصّ بباب البدل ، وهو أن الألف في باب البدل أكثر من سائر الحروف ، فلم يجز الاخلال بها في باب الابدال .
وأما على غير طريقة سيبويه[3] ، فقد بلغ حروف البدل ثمانية عشر ، فعدّ فيها اللام بدلاً من النون في « أُصَيْلال »[4] و « الصاد » تبدل من « السين » في « الصراط » و « الثاء » من

---

(١) زيادة يقتضيها السياق ، ويلاحظ أنه جعل مع الرِّخوة ما بين الشديدة والرخوة وهي المجموعة في قوله « لم يروعنا » .

(٢) قال مكي بن ابي طالب في كتابه « الرعاية لتجويد القراءة » : حرفا اللين : وهما : الواو الساكنة التي قبلها فتحة ، والياء الساكنة التي قبلها فتحة ، وإنما سميتا بذلك لأنهما يخرجان في لين وقلة كلفة على اللسان ، لكنهما نقصتا عن مشابهة الألف لتغير حركة ما قبلهما عن جنسهما فنقصتا المدّ الذي في الألف ، وبقي فيهما اللين لسكونهما فسميتا بحرفي اللين .

(٣) قال ابن عصفور في « الممتع » ٤١٠/١ : وزاد بعض النحويين في حروف البدل : السين والصاد والزاي والعين والكاف والفاء والشين .. والسبب في أن لم يذكر سيبويه هذه الحروف السبعة في حروف البدل أنها تنقسم قسمين : قسم الابدال فيه مراد به تقريب الحرف من غيره ، فبابه أن يذكر في البدل الذي يكون بسبب الادغام لأنه يشبهه .. وقسم : الابدال فيه قليل جداً أو في لغة بعض العرب فلم يعتبره » .

(٤) قال في « الممتع » : وأبدلوا اللام من النون في « أصَيلان » تصغير « أُصلان » فقالوا : « أُصَيْلاناً » و « أصيلالاً » .

« الفاء » في « فروع الدلو » والفاء من الثاء في « جدث » و « جدف » و « ثوم » و « فوم » والعين من الهمزة في عنعنة تميم ، نحو قوله :

أَعَنْ تَرَسَّمْتَ مِن خَرقاءَ منزلةً[٥] .

في « أأن ترسمت » .

والباء من الميم « باسمك » في « ما اسمك » والزاي من السين في قولهم : « زقر » أي : « سقر » ـ فعلى هذا ـ في هذه الحروف من الثمانية عشر تسعة ، وهي الستة المذكورة واللام ، والصاد ، والعين . ومالا يصح فيه الإدغام : اثنان : الهمزة والألف . وذكر أحدهما .

ومالا يدغم ولا يدغم فيه : فالواو والياء ـ إذا انفتح ما قبلهما ـ وقد ذكر أحدهما .

وأما الحروف التي لا يدغم فيما قاربها ، ويدغم ما قاربها فيها : فهي الميم ، والراء ، والشين ، والفاء ، وقد ذكر من هذه الحروف اثنان .

وأما حروف اللقلقة : فخمسة : القاف ، والجيم ، والطاء ، والدال ، والتاء : وذكر منها اثنان : الطاء والقاف وهما أقوى الخمسة .

وأما الحروف التي للعرب دون العجم : فالضاد ، والحاء ، وقد ذكر أحدهما .

وأما الحروف الذلقية : وهي التي ذلقت وسهلت على اللسان ، فستة يجمعها « رمل فنب » .

وحروف الحلق : وهي ستة : الحاء والخاء ، والعين والغين ، والهاء والهمزة .

فقد ذكر من النوعين أكثر من النصف للتنبيه على كثرة وقوعهما في الكلام ، إذ قلّ ما ينفك رباعي وخماسي من حرف أو حرفين أو ثلاثة من هذه الحروف فلما كثر وقوعهما في الكلام زيد المذكور منهما على النصف تنبيهاً على ذلك .

وأما الزوائد : فعشرة يجمعها : « اليوم تنساه » ، ووقع في هذه الحروف منها سبعة لخاصيّة فيها وهي التنبيه على أن البناء من الكلمة قد يبلغ سبعة أحرف بالزيادة فهذه هي التي زاد المذكور منها على النصف لفائدة تختصه وحكمة تقتضيه .

---

(٥) البيت لذي الرُّمة وهو في ديوانه : ٥٦٧ وشطره الثاني : ماءُ الصَّبابَةِ من عينيك مَسجُومُ ؟

وما روي عن ابن عباس أن هذه الحروف اختصار من كلمات ، فمعنى « الم » : أنا الله أعلم . ومعنى « المر » : أنا الله أعلم وأرى ، فإشارة منه إلى ما تقدم . وبيان ذلك ما ذكره بعض المفسرين أن قصده بهذا التفسير ليس أن هذه الحروف مختصة بهذه المعاني دون غيرها ، وإنما أشار بذلك إلى ما فيه الألف واللام والميم من الكلمات تنبيهاً أن هذه الحروف منبع هذه الأسماء ، ولو قال : إن اللام يدل على « اللعن » والميم على « المكر » لكان يحمل . ولكن تحرّى في المثال اللفظ الأحسن ، كأنه قال : هذه الحروف هي أجزاء ذلك الكتاب .

ومثل هذا في ذكر نبذ تنبيهاً على نوعه قول ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾[1] انه الماء الحار في الشتاء ولم يرد به أن النعيم ليس إلّا هذا ، بل أشار إلى بعض ما هو نعيم تنبيهاً على سائره فكذلك أشار بهذه الحروف إلى ما يتركب منها وعلى ذلك ما رواه السُّدِّي عنه أن ذلك حروف إذا ركبت يحصل منها اسم الله .

وكذا ما روي عنه أنه قال : هي أقسام غير مخالف لهذا القول ، وذاك أن الأقسام الواردة في فواتح السور إنما هي بِنعَم وأجوبتها تنبيه عليها ، فيكون قوله : ﴿ **الم ذلك الكتاب** ﴾ جملة في تقدير مقسم بها . وقوله : « **لا ريب فيه** » : جوابها ويكون إقسامه بها تنبيهاً على عظم موقعها ، وعلى عجزنا عن معارضة كتابه المؤلف منها .

فإن قيل : لو كان قسماً لكان فيه حرف القسم . قيل : إن حرف القسم يحتاج إليه إذا كان المقسم به مجروراً . فأما إذا كان مرفوعاً نحو «**أيْمُ الله** » أو منصوباً نحو « يمينَ الله » فليس بمحتاج إلى ذلك .

وما قاله زيد بن أسلم ، والحسن ومجاهد ، وابن جريج أنها أسماء للسور فليس بمنافٍ للأول فكل سورة سمّيت بلفظ متلو منها ، فله في السورة [معنى] معلوم . وعلى هذا القصائد والخطب المسمّاة بلفظ منها ما يفيد معنى فيها .

وكذلك ما قاله أبو عبيدة ، وروي أيضاً عن مجاهد ، وحكاه قطرب والأخفش : ان هذه الفواتح دلائل على انتهاء السورة التي قبلها ، وافتتاح ما بعدها ، فإن ذلك يقتضي من حيث انها لم

---

(١) التكاثر : ٨

تقع في أوائل السور يقتضي ما قالوه ولا يوجب ذلك أن لا معنى سواه .

وما ذكر أن هذه الحروف قصد بها الرّد على من قال : إن النبي ـــ ﷺ ـــ كان يتلقن ما يودعُه القرآنَ من بعض الأعجمين ، وذلك في قوله : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** ﴾[1] . فذلك شبيه أن هذه الصورة المخصوص بها القرآن ، هي من النظم الذي أصوله عندكم ، وذاك أن القوم لم يدّعوا ، أن لفظ هذا القرآنِ أعجمي ، وإنما ادعوا أن معناه مأخوذ عنهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾[2] فإذاً : المعنى يرجع إلى ما تقدم بأنه تنبيه على إعجازه .

وما قاله قطرب إن قصد بها صرف أسماع المشركين إلى الاستماع إليه لما تواصوا بأن لا تسمعوا له حتى قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه** ﴾[3] فإنما يشير به أيضاً إلى المعنى المتقدم ، لأنه تعالى قصد بصرف أسماعهم تنبيهَهُم على عجزهم عن معارضتهْ ، وأن من حقكم إذا عجزتم عن مثله أن تتدبروا آياته ، وأن تعرفوا أنه حق فلا تلغوا فيه .

وما روي عن ابن عباس أنه قال : الألف من « الم » : دلالة على « الله » ، واللام على « جبريل » ، والميم على « محمد » فدلّ بذلك أن القرآن [من الله] ـــ عز وجل ـــ مبدؤه ، وأن الواسطة : جبريل . ومنتهاه إلى محمد . فهذا صحيح ودال على ما تقدم . وقد نبّه بمخرج « الألف » الذي هو مبدأ مخارج الحروف على المبدأ ، وهو الله تعالى . وبمخرج اللام الذي هو أوسط المخارج على جبريل ، وبمخرج الميم الذي هو منتهى المخارج على النبي عليه السلام ـــ فكأنه قال : من هذه الحروف الدالة على الأسباب الثلاثة حصول الكتاب الذي عجزتم عن الإتيان بمثله .

وما قاله الربيع بن أنس ان هذه الحروف الْجُملُ وأن ذلك من علوم خاصتهم ، وقد نبّه بها على مدد فذلك غير ممتنع أن يكون مع المعنى الأول مراداً ، بدلالة أن النبي ـــ عليه السلام ـــ لما أتاه اليهود فسألوه عمّا أنزل عليه ، تلا عليهم « الم » فَحَسَبوه وقالوا : إن مُلْكاً يبقى إحدى وسبعين

(١) النحل : ١٠٣ .
(٢) هود : ١٣ .
(٣) فصلت : ٢٦ .

سنة لقصير المدة فهل غيره ؟ فقال : الر . والمر . والمص [فقالوا] : خلطت علينا فإنا لا ندري بأيها نأخذ .

فتلاوة النبي — عليه السلام — ذلك عليهم ، وتقريرهم على استنباطهم دلالة انه لا يمتنع أن يكون في كل واحدة دلالة على مدّة لأمر ما[1] .

وأما ما حكِّي عن الزبيري أن هذه الحروف ذَكَرت علماً منه تعالى أنه يكون في هذه الأمة مَن يزعم أن القرآن ليس بكلام الله ، وإنما هو حكايةُ كلامه ، فأراد أن يبين أن القرآن مما يكتب ويخبر عن أبعاضه وأجزائه بالحروف التي هي معلومة أنها محدثة ، فإن هذا القول من الوهي بحيث يستغنى عن إظهار بطلانه ، إذ لا يقول أحد إن الكتاب بما هو كتاب ليس بمؤلف من هذه الحروف وإن كانوا قد اختلفوا في القرآن . هل هو مقصور على الكتاب ؟ أو المراد به هو وغيره ؟

قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ :

قال أبو عبيدة : عنى به : هذا الكتاب . وقال غيره : عنى : هو الكتاب فظنّ بعض من لم يتقوّ في الحقائق أن قولهم : « ذلك » قد تجيء بمعنى « هذا » و « هو » . وليس الأمر على ما ظنّوه . وإنما قصد هذا المفسّر أن يبين أن الاسم فيه الألف واللام هو الخبر ، لا أنه وصف والخبر

---

(١) وهذا الكلام مقبول فيما لو صحّ الحديث ، إلا ان الحديث ضعيف لا يحتج به كما ذهب إلى ذلك ابن كثير في تفسيره : ١/٦٩ — ٧٠ حيث قال : « وأما من زعم أنها دالّة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والملاحم ، فقد ادّعى ما ليس له وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف ، وهو مع ذلك أدلّ على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته . فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي ، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به . ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة ، وإن حسبت مع التكرار فأطمُّ وأعظم » .

وكذلك نقل السيوطي في الاتقان ٣/٢٦ ردَّ ابن حجر على السهيلي الذي قال « لعلّ عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة » ويقول ابن حجر في ردّ ذلك : وهذا باطل لا يعتمد عليه ، فقد ثبت عن ابن عباس — رضي الله عنه — الزّجْر عن عَدِّ أبي جاد ، والإشارة إلى ذلك من جملة السحر » وليس ذلك ببعيد فإنه لا أصل له في الشريعة » .

منتظر ، كقوله تعالى : ﴿ **إن كان هذا هو الحق** ﴾[1] . والفصل كما يقع بالمضمرات ، فإنه يقع بالمبهمات.

فإن قيل : إذا كان المعنى ما قدمت في ﴿ **الم ذلك الكتاب** ﴾ فهلّا قيل : « ذلك الكتاب الم » ، فإنه قد علم أن حروف التهجي ــ كما يكون الكتاب المشار إليه ــ قد يكون شعراً وخطبة ورسالة . وقد تقرر أن العام إذا أخبر عنه بالخاص كان كذباً ، نحو قولهم : الحيوان إنسان . وإذا أخبر عن الخاص بالعام كان صدقاً ، نحو قولهم : الإنسان حيوان ، فيحصل من ذلك أنه إذا قيل : « الم ذلك الكتاب » ــ كان كذباً على هذا ــ وإذا قيل : « ذلك الكتاب الم » كان صدقاً ؟

قيل : في ذلك جوابان : احدهما : ان يجعل « ذلك الكتاب » : مبتدأ . و « الم » : خبراً له مقدماً . وتقديمه على كون العناية به أصدق كما تقدم . والثاني : انه قد يقال : الإنسان زيد . بمعنى غير معنى « زيد إنسان » ، وهو أن يراد أن كمال الانسانية موجود في زيد . فكأنه قيل : كمال حروف التهجي موجود في هذا الكتاب والمكتوب في التعارف اسم للمكتوب ، أي : المنظوم كتابة ، وقد يعبر عن المنظوم عبارة قبل أن يكتب بالكتاب .

« لا ريب فيه » : قال المفسرون : معناه : لا شك فيه .

فإن قيل : كيف نفى الريب عنه ، وقد علم تشكك كثير من الناس فيه ؟

قيل : في ذلك أجوبة :

الأول : ان ذلك نفي على معنى النهي ، نحو قوله : ﴿ **فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج** ﴾[2] بدلالة قوله ﴿ **فلا تكونن من الممترين** ﴾[3] وقوله : ﴿ **فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾[4].

---

(١) الأنفال : ٣٢ .
(٢) البقرة : ١٩٧
(٣) البقرة : ١٤٧ .
(٤) الأعراف : ٢ .

فإن قيل : الشك لا يقصده الإنسان ، فكيف ينهى عنه ؟

قيل : اللفظ لذلك ، والمعنى : حث على التدبر والتفكر النافيين للشك .

والثاني : أنه يقال : رابني كذا ، إذا تحققت منه الريبة . وأرابني : أوهمني الريبة . قال الشاعر :

أخوك الذي وإنْ رِبْتَهُ قال إنما أرَبْتُ وإنْ عاتبتَه لان جانبه[1]

فالقرآن لا ريب فيه ، وإن كان ارتياب من بعض الكفار .

والثالث : انه يقال : هذا لا ريب فيه ، والقصد إلى انه حق ، تنبيهاً أن الريب يرتفع عنه عند التدبر والتأمل .

والرابع : انه لا ريب في كونه مؤلفاً من حروف التهجي ، وقد عجزتم عن معارضته .

والخامس : لا ريب فيه للمتقين . ويكون خبر « لا ريب فيه » قوله تعالى : ﴿ **للمتقين** ﴾ و ﴿ **هدى** ﴾ : نصب على الحال . أو خبر ابتداء مضمر في موضع الحال .

قوله ــ عز وجل ــ ﴿ هدىً للمتقين ﴾ :

قد تقدم الكلام في الهداية . وأما اختصاص المتقين ، فلأن الهداية : نصب العلم ليهتدي به الناس . فله موضوع هو المبدأ : وذلك نصب العلم للكافة . وغاية : وهو الاهتداء . فيقال : هدىً للمتقين . لما لم يهتد به غيرهم . ومثاله : من بنى مسجداً مباحاً للكافة . يصح أن يقول : بنيت هذا المسجد للناس كافة ، اعتباراً بالمبدأ . ويصح أن يقول : بنيته للمصلين فيه ، اعتباراً بالغاية .

وطريقة أخرى : وهي أن « اللام » في قول القائل : « خرجت لأظفر » يقال على وجهين :

---

(١) البيت لبشار وهو في ديوانه : ٣٢٦/١ ، وفي الحماسة البصرية : ٣٤/٢ ونصه في الحماسة :
أخوك الذي إن تدعه لملمة يُجِبْكَ وإن عاتبته لان جانبه
وفي « دلائل الاعجاز » /١٣٤ : ومعنى « إن رِبْتَه » : أي : أتيت بما يرتاب فيه ، قال لك : أرِبْتَ : أي : انتفت عنك الريبة .

أحدهما : ان المقصود بالخروج : الظفر . والثاني : ان الحاصل منه الظفر ، لا أنه قصد به ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً** ﴾[1] . **فقوله : هدىً** للمتقين : تنبيه على حصول الهدى لهم ، وإن كان القصد لهم ولغيرهم .

وطريقة ثالثة ــ إذا تُؤُمِّلَتْ تُصُوِّرَ عنها جواب مسائل كثيرة في القرآن ــ وهو أن الله تعالى جعل لنا طبين : طبّاً بدنياً ، وطبّاً دينياً . وكل واحد منهما ضربان :

أحدهما : إعادة الصحة . والآخر : حفظ الصحة .

وقد أجرى العادة أن الذي يحفظ به الصحة غير الذي يعاد به الصحة .

أما في الطب البدني : فالذي يعاد به الصحة العقاقير والأدوية . والذي يحفظ به الصحة فالغذاء والأطعمة .

وأما في الطب الديني : فالذي يعاد به الصحة : صقل العقل واستعماله في تدبر الدّلالات ، وتعرّف المعجزات ، ومعرفة النبوّات . والذي به [حفظ] الصحة : تدبر الكتاب المنزل ، وتتبع سنن النبي المرسل . فكما أن من لم يستفد الصحة في الطب البدني ، إذا تغذّى كان ذلك ضرراً عليه ، ومتى أعاد صحته كان تناول الغذاء عائداً بنفع إليه ، كذا من لم يستفد صحّة عقله بتدبر الدّلالات كان القرآن ضرراً عليه ، ومتى استعمل ذلك وتهذّب فيه ، جلب بالاستماع إلى القرآن نفعاً إليه . وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً** ﴾[3] إلى قوله : ﴿ **فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾[4] .

وأما « التقوى » : فهو : جعل النفس في وقاية مما يخاف . هذا حقيقته . ثم يسمّى تارة « الخوف » تقوى . والتقوى : خوفاً ، على تسمية المقتضي باسم المقتضي ، والمقتضي باسم المقتضي .

---

(١) القصص : ٨

(٢) الاسراء : ٨٢

(٣) التوبة : ١٢٤

(٤) التوبة : ١٢٥ .

وفي التعارف : حفظ النفس عن كل ما يُؤْثِم . ولها منازل :

الأول : ترك المحظور . وذلك لا يتم إلّا بترك بعض المباح مما يليه . ولذلك قال عليه السلام : « **من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه** »[1] . وقيل : من لم يجعل بينه وبين محارم الله ستراً من حلال فحقيق به أن يقع فيها . فقوله تعالى : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾[2]. أي : التاركين للمحظورات . وقال : ﴿ **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[3] وقال : ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[4] فجعل « المتقي »-في الآيتين — غير المصلح والمحسن .

والثاني : من منازل التقوى — ان يتعاطى الخير مع تجنب الشر ، وإيّاه عني الله تعالى : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾[5] .

والثالث منها : التبرؤ من كل شيء سوى الله — عز وجل — فلا سكون إلى النفس ولا إلى شيء من القنيات والجاه والأعراض . وهو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾[6] وما وعدناه بقوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم** ﴾[7] ورجّاناه بقوله : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾[8] إلى قوله : ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾[9] .

فهذه المنازل مرتب بعضها على بعض . وقد فسر قوله تعالى : ﴿ **هدىً للمتقين** ﴾ على

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الايمان/١/١١٧ ومسلم في المساقاة برقم /١٥٩٩/ وأبو داود في البيوع برقم/٣٣٢٩/و ٣٣٣٠ والترمذي في البيوع برقم /١٢٠٥ والنسائي في البيوع/٧/٢٤١ .

(٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) الأعراف : ٣٥ .

(٤) النحل : ١٢٨ .

(٥) الزمر : ٧٣ .

(٦) آل عمران : ١٠٢ .

(٧) محمد : ١٧ .

(٨) الأنعام : ٥١ .

(٩) الأنعام : ٥١ وقبلها : « ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع » .

الوجوه الثلاثة : فقيل : عنى به التاركين لمحارم الله .

وقال ابن عباس : عنى به الخائفين عقوبته الراجين رحمته .

وقال بعض المتقدمين : معنى « هدىً للمتقين » : أي : وصلة للمنقطعين إليه عن الأغيار الذين نزع عن قلوبهم حب **الشهوات** . فهذا نظر منهم إلى الغاية .

قوله ــ عز وجل : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ :

الإيمان : التصديق بالشيء . ولا يكون التصديق إلّا عن علم . ولذلك قال تعالى : **﴿ إلّا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾**[1] . فالإيمان : اسم لثلاثة أشياء : علم بالشيء ، وإقرار به وعمل بمقتضاه ، إن كان لذلك المعلوم عمل ، كالصلاة والزكاة . وهذا هو الأصل .

ثم قد يستعمل في كل واحد من هذه الثلاثة ، فيقال : « فلان مؤمن » ويعني به أنه مقرّ بما يحصن دمه وماله . وإياه عنى النبي ــ ﷺ ــ بقوله : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها** »[2] ، وبذلك حكم ــ عليه السلام ــ على الجارية التي عرضت عليه ، فسألها ما سألها . ثم قال : « **اعتقها فإنها مؤمنة** »[3] .

ويقال « مؤمن » ويراد به : أنه يعرف الأدلة الإقناعية التي يحصل معها سكون النفس . وإياه عني النبي ــ ﷺ ــ بقوله : « **من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة** »[4].

---

(١) الزخرف : ٨٦ .

(٢) أخرجه البخاري في أول الزكاة : ٢١١/٣ ومسلم في الايمان تحت رقم ٢١ والترمذي في الايمان تحت رقم/٢٦١٠/ والنسائي في الزكاة : ١٤/٥ وأبو داود في الجهاد تحت رقم/٢٦٤٠ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في المساجد تحت رقم/٥٣٧ وأبو داود في الصلاة تحت رقم ٩٣ و٩٣١ والنسائي في السهو : ١٤/٣ ــ ١٨ .

(٤) أخرج الترمذي في الدعوات برقم/٣٥٨٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما قال عبد لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه إلّا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر » .

ويقال « مؤمن » ويعني به : أنه يسكن قلبه إلى الله من غير تَلَفُّت إلى شيء من عوارض الدنيا . وإياه عنى الله تعالى بقوله : ﴿ **إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم** ﴾[١] ــ الآية ــ وبقوله : ﴿ **أولئِكَ كَتَبَ في قلوبِهم الايمانَ** ﴾[٢] .

و « الغيب » : مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم : إما بواسطة علم ما والاستشهاد به عليه . وإما بخبر الصادق ، وهو الذي دفعه قوم ، فلزمهم اسم الإلحاد ، لأن الإلحاد : دفع أخبار الغيب .

وقول [« زرّ » بن][٣] الغيب : هو القرآن . وقول عطاء : انه القدر : تمثيل لبعض ما هو غيب . وليس ذلك بخلاف بينهم ، بل كل أشار إلى الغيب بمثال .

وكذا ما روى أبو جمعة « إنا كنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ فقلنا يارسول الله : هل قوم أعظم أجراً منا ، آمنا بك واتبعناك . قال : ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به ، ويعملون بما فيه ، أولئك أعظم أجراً منكم »[٤] فتبين منه ــ عليه السلام ــ أن من بعده يحتاج إلى نظر أكثر من نظر الذين شاهدوه ، فقد كفوا كثيراً من أخبار الغيب .

وقوله : « بالغيب » : في موضع المفعول . كقوله : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

وقال بعضهم معناه : يؤمنون إذا غابوا عنكم . ولم يكونوا كالمنافقين الذين ﴿ **إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزئون** ﴾[٥] وقوّى ما قاله بقوله تعالى : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾[٦] وقوله : ﴿ **وخشي الرحمن بالغيب** ﴾[٧]. وقول الشاعر :

وهم بغيب وفي عميا ما شعروا[٨].

---

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) المجادله : ٢٢ .

(٣) في الأصل : شريك . وهو تصحيف لـ « زر بأن » وانظر خبر زر وعطاء في الطبري : ١/٢٣٦ وابن كثير : ١/٦٣ .

(٤) انظر لهذا الحديث عدة روايات أوردها ابن كثير في تفسيره : ١/٦٤ .

(٥) البقرة : ١٤ .

(٦) الأنبياء : ٤٩ .

(٧) يس : ١١ .

(٨) لم أجده .

ويكون « بالغيب » ــ على هذا ــ في موضع الحال . ومفعول « يؤمنون » : محذوف .

وقال بعض المتأخرين من المتكلمين : يحمل قوله « بالغيب » على المعنيين . وخفي عليه أن ذلك لا يصح ، فإن « بالغيب » في القول الأول : مفعول وفي القول الثاني : حال . ولا يصح أن يقال : ضربت راكباً . و « راكب » يكون مفعولاً لـ « ضربت » و « حالاً » للفاعل . والوجه : هو القول الأول ، لأنه مستوعب معنى الثاني وزائد عليه ، إذ كل من آمن ــ على الوجه الأول ــ فلاشك أنه بخلاف من يقول : « إنما نحن مستهزئون » .

وقيل : معنى قوله ﴿ **يؤمنون بالغيب** ﴾ : يعني بالقلب ، والنور الذي آتاهم الله وهو العقل ، ومعناه : آمنوا بقلوبهم ، بخلاف من أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾[1] . وهذا أيضاً يرجع إلى الأول ــ عند التحقيق .

وقيل : « يؤمنون » من آمن فلان ــ أي : صار ذا أمن نحو أحال[2] وأجرب . ومعناه : صاروا ذوي أمن بظهر الغيب بأن ما أخبروا به حق فتطمئن قلوبهم بذكر الله .

قوله عز وجل : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ :

إقامة الصلاة : توفية حدودها وإدامتها ، وتخصيص « الإقامة » تنبيه أنه لم يرد ايقاعها فقط . ولهذا لم يأمر بالصلاة ولم يمدح بها إلّا بلفظ « الإقامة » نحو : ﴿ **أقم الصلاة** ﴾[3] وقوله : ﴿ **المقيمين الصلاة** ﴾[4] و ﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾[5] ، ولم يقل « المصلّي » إلا في المنافقين : ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾[6] وذلك تنبيه أن المصلين

---

(١) البقرة : ٨ .

(٢) لام « أحال » في الأصل غير واضحة ، والتصحيح من كتاب سيبويه : ٥٩/٤ حيث جاء فيه : « وتقول : أجرب الرجل ، وأنحز ، وأحال ، أي : صار صاحب جرب وحيال ونُحاز في ماله ، وتقول لما أصابه : هو نَحِز وجَرِب وحائل للناقة .

(٣) الاسراء : ٧٨ .

(٤) النساء : ١٦٢ .

(٥) المائدة : ٥٥ ، الأنفال : ٢ ، النمل : ٣ ، لقمان : ٤ .

(٦) الماعون : ٤ ، ٥ .

كثير ، والمقيمين لها قليل كما قال عمر رضي الله عنه : ﴿ **الحاج قليل ، والركب كثير** ﴾ .

ولهذا قال ــ عليه السلام ــ ﴿ **من صلّى ركعتين مقبلاً بقلبه على الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه** ﴾[*] . فذكر مع قوله « صلّى » **الإقبال** بقلبه على الله ، تنبيهاً على معنى « **الإقامة** » ، وبذلك عظم ثوابه .

وكثير من الأفعال التي حثّ تعالى على توفية حقه ذكره بلفظ « **الإقامة** » نحو : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل** ﴾[1] ونحو : ﴿ **أقيموا الوزن بالقسط** ﴾[2] تنبيهاً على المحافظة على تعديله .

وقال أبو علي الجبائي : الصلاة : لما جاءها القيام صح أن يعبر عن المصلّي بالقيام وهذا بعيد ، لأن المجاور للصلاة : القيام لا الإقامة ، ثم مع القول المتقدم لا يعرج على هذا .

وقوله : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ :

الرزق : لفظ مشترك ، يقال للعطاء الجاري تارة ، وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة . فقوله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾[3] : يعني : نصيبكم من النعمة . وقوله : ﴿ **وفي السماء رزقكم** ﴾[4] : تنبيه أن الحظوظ بالمقادير . وقوله : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾[5] ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[6] : محمول على المباح دون المحظور لأمرين :

(*) الحديث في مسلم في كتاب الطهارة بلفظ « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبل عليهما بقلبه ووجهه إلّا وجبت له الجنة » كما أورد مسلم في معناه الرواية التالية : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٣/١٠٨ ــ وانظر الرواية الأولى في صحيح مسلم بشرح النووي : ٣/١١٨ .

(١) المائدة : ٦٦ .

(٢) الرحمن : ٩ .

(٣) الواقعة : ٨٢ .

(٤) الذاريات : ٢٢ .

(٥) المنافقون : ١٠ .

(٦) الأنفال : ٣ ، الحج : ٣٥ ، القصص ، ٥٤ ، السجدة : ١٦ ، الشورى : ٢٨ .

احدهما : حث على الإنفاق ومدح لفاعله ، ولا يحث ولا يمدح بإنفاق المحظورات .

والثاني : بإضافته إليه ، وتمكينه منه ، حيث قال : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ . ومن شرط ما يضاف إليه من الأفعال أن يخص الأفضل فالأفضل ، وإن كان قد يضاف إليه الأفعال كلها على سبيل العموم ، بمعنى : أنه هو السبب الذي لولاه ـــ تعالى ـــ لم يحصل ولم يكن بوجه .

والظاهر ـــ من إنفاق ما رزقه الله ـــ المال ، وذلك عام فيما يخرج من الزكاة المفروضة ، ومن العطايا النافلة ، بدلالة أن ذلك مدح منه . والمدح قد يستحق بالفرض والنفل .

وما روي عن ابن عباس أنه عنى « الصلوات المفروضة » و « الزكوات » فإنه ذكرَ أوْكَدَ ما يستحق به المدح ، إذ لا يعتد بالنفل ما لم يُؤْتَ بالفرض ، لقوله عليه السلام :

« **إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة** »[1] .

وروي عن ابن مسعود أن المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى اللقمة يضعها في [في] امرأته .

فالإنفاق من الرزق بالنظر العامي من المال كما تقدم . وأما بالنظر الخاصي : فقد يكون الإنفاق من جميع المعاون التي آتانا الله ـــ عز وجل ـــ من النعم الباطنة والظاهرة ، كالعلم والقوة والجاه والمال . ألا ترى إلى قوله عليه السلام :

---

(١) المشهور في هذا اللفظ أنه من قول أبي بكر رضي الله عنه ، وأما معناه فقد أشار إليه ابن حجر في فتح الباري في شرحه لحديث : « من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه » حيث قال ابن حجر : قال ابن هبيرة : يؤخذ من قوله : « ما تقرب الخ » أن النافلة لا تقدم على الفريضة ، لأن النافلة إنما سُمِّيَت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة ، فما لم تؤدَّ الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدّى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب » انتهى . ثم يقول ابن حجر : « وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صحّ في الحديث الذي أخرجه مسلم : « انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته ـــ الحديث بمعناه ـــ فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدّى الفرائض لا من أخلَّ بها كما قال بعض الأكابر : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور » ـــ فتح الباري : ٣٤٣/١١ كتاب الرقائق .

« إن علماً لا يقال به ككنز لا ينفق منه »[1].

وبهذا النظر عدَّ الشجاعة وبذل الجاه وبذل العلم من الجود حتى قال الشاعر :

والجود بالنفس أقصى غاية الجود[2].

وقال آخر :

بحر يجود بماله وبجاهه والجود كل الجود بذل الجاه[3]

وقال حكيم : الجود التام : بذل العلم .

فمتاع الدنيا عرض زائل يُنْقِصُه الإنفاق . وإذا تزاحم عليه قوم ثَلَم بعضُهم حال بعض . والعلم — بالضد — فهو باق دائم . ويزكو على النفقة ، ولا يثلم تناول البعض حال الباقين .

وإلى هذا ذهب بعض المحققين فقال : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ : أي : مما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون . فعلى هذا عام في كل ذلك .

قوله — عز وجل : ﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ :

الإنزال ، والوحي متقاربان . لكن استعمال « الإنزال » على اعتبار حال المنزل ، والمنزل إليه بالشرف والمنزلة ، لا بالمكان .

والوحي : هو الإشارة **والإلقاء** . وذلك على ثلاثة **أضرب** بينها الله تعالى في قوله : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما**

---

(١) أخرجه أحمد عن ابي هريرة بلفظ « قال قال رسول الله — ﷺ : « إن مثل علم لا ينفع كمثل كنز لا ينفق في سبيل الله — عز وجل » وقال صاحب الفتح الرباني : أخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط — انظر الفتح الرباني : ١٦١/١ — والحديث أيضاً عند الدارمي في المقدمة : باب البلاغ عن رسول الله — ﷺ — وتعليم السنن انظر سنن الدارمي : ١١٣/١ .

(٢) البيت لمسلم بن الوليد وهو في ديوانه ، انظر شرح ديوانه : ١٦٤ — طبعة دار المعارف — وشطره الأول : تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها .

(٣) لم أجده .

يشاء ﴾[1] :

فالأول ــ من ذلك الوحي : والإنزال الذي بيّنه تعالى وبين أولي العزم من الرسل بسفير يرونه .

والثاني : بسماع من غير رؤية ، كحال موسى ــ عليه السلام ــ في ابتداء بعثته .

والثالث : بالإلهام والإلقاء في الروع . وذلك ضربان :

ــ إما إلقاء في الروع في حال اليقظة ، وهو المعبّر عنه بـ « المحدّث » و « المروّع » ، وعليه نبّه عليه السلام [بقوله] : « إن في أمتي لمروعين »[2] وقوله : « إن يك في هذه الأمّة محدّث فعمر بن الخطاب »[3] وقوله : « إن روح القدس نفث في روعي »[4] .

ــ وإما إلقاء إليه في المنام ، وذلك ضربان :

إما ظاهر من المنام لا يحتاج إلى تعبير ..

وإما تلويح ورمز يحتاج إلى تعبيره . ولهذا قال عليه السلام .

« الرؤيا الصادقة جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوّة »[5]

---

(١) الشورى : ٥١ .

(٢) و (٣) أخرج البخاري في فضائل الصحابة ٧/٤٠ و٤١ ومسلم تحت رقم /٢٣٩٨/ في فضائل الصحابة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ــ ﷺ : « لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناس محدثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » ومعنى : « محدثون » : ملهمون . وفي الحديث رواية أخرى عن عائشة أخرجها مسلم تحت رقم /٢٣٩٨ والترمذي تحت رقم/٣٦٩٤ .

(٤) نص الحديث : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها » وقد رواه ابو نعيم في الحلية : ١٠/٢٧ من حديث أبي أمامة ، وابن حبان والحاكم وابن ماجة من حديث جابر والحاكم من حديث ابن مسعود ، والبزار .. من حديث حذيفة ، وابن حبان والبزار والطبراني عن أبي الدرداء وابو يعلى عن أبي هريرة وابن ماجة عن أبي حميد الساعدي مطولاً ومختصراً وهو حديث صحيح .

(٥) هذا الحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا بلفظ : « .. ورؤيا المسلم جزء من

فالذي يكون في المنام بالإلقاء في الرّوع ، قد يكون لغير الأنبياء . والذي يكون بالسماع من غير رؤية قد يكون لغير أولي العزم من الرسل . والذي يكون بالسفير المرئي لا يكون إلّا لأولي العزم .

وعلى هذا حال الإنزال . فقد ذكر تعالى : ﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾[1] . وقال : ﴿ **وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾[3] .

ومعلوم أن ذلك بالتمكين . والإلقاء في الروع : بالهداية إليه . واليقين أقوى إدراكات العقل ولهذا قيل : هو مشاهدة الغيوب بعين القلوب تنبيه أنه أقوى إدراكات العقل ، كما أن رؤية البصر أقوى إدراكات الحواس .

ولصعوبة إدراكه ، قال ــ عليه السلام ــ « **أخوف ما أخاف على أمتي ضعف**

= خمس واربعين جزءاً من النبوّة .. » وقد ورد الحديث في أكثر الروايات بلفظ « ..جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوّة » وفي بعضها : « جزء من أربعين جزءاً » وفي بعضها الآخر : « جزء من سبعين جزءاً » .

وقد علّق على ذلك صاحب جامع الأصول فقال : « كان عمر رسول الله ــ ﷺ ــ في أكثر الروايات الصحيحة ثلاثاً وستين سنة ، وكانت مدة نبوّته منها ثلاثاً وعشرين سنة ، لأنه بعث عند استيفائه أربعين سنة ، وكان ــ ﷺ ــ في أول أمره يرى الوحي في المنام ، ودام كذلك نصف سنة ، ثم رأى الملك في اليقظة فإذا نسبت المدة التي أوحي اليه فيها في النوم ــ وهي نصف سنة ــ إلى مدة نبوته ، وهي ثلاث وعشرون سنة ــ كانت نصف جزءٍ من ثلاثة وعشرين جزءاً ، وذلك جزء من ستة واربعين جزءاً ، وقد تعاضدت الروايات في أحاديث الرؤيا أنها جزء من ستة واربعين جزءاً فأما من رواه خمسة وأربعين جزءاً فهو قليل على أن للخمسة والأربعين وجه مناسبة من أن يكون عمره لم يكمل ثلاثاً وستين سنة ، ومات ﷺ ــ في أثناء السنة الثالثة والستين ونسبة نصف السنة إلى اثنين وعشرين سنة وبعض الأخرى نسبة جزء من خمسة واربعين جزءاً .

وانظر روايات الحديث في البخاري : ٣٥٦/١٢ ــ ٣٥٩ في كتاب التعبير ومسلم رقم (٢٢٦٣) في الرؤيا والترمذي رقم (٢٢٧١) وابو داود رقم (٥٠١٩) .

(١) الشورى : ١٧ .

(٢) الزمر : ٦ .

(٣) الحديد : ٢٥ .

اليقين »[1] . ولذلك قالوا : اليقين : هو اطمئنان القلب اعتباراً شمرته . **وقال تعالى :** **﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ﴾**[2] . **واستعمل فيه** « الرؤية » تنبيهاً على ما تقدم .

والكلام في ترتيب الآيتين ونظمهما صعب . وذاك انه إن كانتا تفصيلاً للمتقين ، **فالوجه أن** يفصل ذلك بفصل لا يُدخل أحد القسمين في الآخر ، نحو أن يقال : العرب بدوي وحضروي وشاعر وغير شاعر . أو تميمي وغير تميمي . فأما أن يقال : شاعر وتميمي فلا يصح . ومعلوم أن بعض ما ينطوي عليه إحدى الآيتين داخل في جملة الأخرى .

وإن كان ذلك ليس بتفصيل ، وإنما هي صفات للمتقين ، ويكون ذكر بعض ذلك مخصصاً عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة على سبيل التخصيص ، **فالوجه : أن لا يعاد** « الذين » ثانياً ، ثم قوله : **﴿ أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾** .

فيقال ــ وبالله التوفيق :

انه قد قيل الآيتان ــ وإن كانتا عامتين ــ فمعناهما خاص . فالأولى أشير بها إلى الذين آمنوا عن الشرك . والثانية إلى الذين آمنوا من أهل الكتاب ــ وهو قول ابن عباس ــ واستدل على تقوية ذلك بأنه كما صنّف الكفار ــ بعد ذلك ــ فجعلهم « مجاهَداً » و « منافقاً » كذلك صنّف المؤمنين ، فجعلهم مؤمناً عن شرك ، ومؤمناً عن غير مخالف في النبوّة .

فعلى هذا قوله : **﴿ الذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾** كأنه قيل : هذا الكتاب هدىً للمسلمين الذين هذا وصفهم . ولأهل الكتاب الذين جمعوا بين الايمان بك وبمن تقدمك .

وقد قيل فيه قول ثان : **وهو أن الإيمان ضربان :**

ضرب يمكن أن يدرك جملة بالعقل ، وإن لم يكن إدراك تفاصيله إلّا بالشرع . **وذلك ثلاثة**

---

(١) أورده صاحب كنز العمال تحت رقم/٧٣٣٢/ج ٣/ص ٤٣٧ بلفظ « ما أخاف على أمتي إلا ضعف اليقين » وعزاه للطبراني في الأوسط وللبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة كما أورده تحت رقم /٧٣٤١/ج٣/ص ٤٣٩ بلفظ « إنما أتخوف على أمتي ضعف اليقين » وعزاه لابن المبارك عن أبي هريرة .
(٢) الأنعام : ٧٥ .

قوله ــ عز وجل : ﴿ أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ :

قد تقدم القول في ذكر الهداية بما أغنى عن الإعادة . فأمّا « الفَلْح » : فأصله : الشق . ومنه قيل : الحديد بالحديد يُفْلِح . وسمّى « الأكَّارُ »[1] : فلاحا ، اعتباراً بمبدأ فعله ، وهو شق الأرض ومن قال : يسمى« المُكارِي »[2] : فلاَّحاً لقول الشاعر[3] :

وفـلاح يَسُــوق لهـا حمـاراً

فهذا سوء نظر منه ، فإنه أراد أكاراً يسوق حماراً . فكما أنه لو قال : أكاراً يسوق حماراً ، لم يكن يجب أن يقال : الأكار : هو المكاري ، كذلك هذا.

وسمي « الظَّفَرُ » فلاحا اعتباراً بكشف الكربة .

ثم « الفلاح » تارة يعتبر بأعراض الدنيا فيقال : أفلح فلان : إذا ظفر بما يريده .
وقول من قال : الفلاح : البقاء ، لقول الشاعر :

ونرجــو الفلاح بعــد عــادٍ وحميرا [4]

فإنما عنى الفرج . والبقاء : بعض الفرج . فإذاً ذلك عام موضوع موضع خاص .
وقد استعمل « الفلاح » في الآية لما هو في الحقيقة ظفر وفرج ، كما قال عليه السلام :

---

(١) الأكَّار الحرَّاث

(٢) المكاري : مُكري الدّوابّ . ويغلب على « الْحَمَّار » و « الْبَغَّال » .

(٣) هو عمرو بن احمد الباهلي كما في اللسان والبيت بتمامه :
لها رِطل تكيل الزيت فيه وفلّاح يسوق لها حماراً .

(٤) البيت للبيد وأوله : نحل بلاداً كلها حل قبلنا .

أشياء ذكرها في الآية المتقدمة : وهي أفضل ما يؤدى بالجوارح وهو الصلاة .

وأفضل ما يؤدى من الأملاك ، وهو الزكاة . وذلك صفات المتقين .

ثم ذكر بعد ذلك ثلاثة أحوال من اسرار **الإيمان** مما لا سبيل إلى معرفته **إلّا** بالسمع ، وهو الايمان بالقرآن ، **والإيمان** بالكتب المنزلة على الرسل المتقدمة ، والايقان بيوم القيامة .

قال : إنما أعاد « الذين » تنبيهاً أن هذه الثلاثة سبيلها غير سبيل **الأول** .

وقد قيل فيه قول ثالث : وهو ان الايمان ضربان :

ضرب : هو معرفة سبيل الحق ، وطلب الوسيلة إليه ، وهو المشار إليه بقوله : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[1] وبقوله : ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾[2] .

وضرب : هو مزاولة السلوك إليه ، المشار بقوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[3] وبقوله : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده** ﴾[4] .

فالمعنيون ــ بالآية الأولى ــ هم الموطئون **السبيل إليه** بالإيمان به والعبادات البدنية والمالية .

وبالثانية : المجتهدون في التوصل إليه . وهم الذين يعرفون حقائق مراد الله بما أنزله على أنبيائه وعناهم الله بقوله : ﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[5] وقوله : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[6] وبقوله : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾[7] وهم المزيد لهم بقوله : ﴿ **ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً** ﴾[8] . فعلى هذا يرجع قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدىً من ربهم** ﴾ إلى الصنف الأول و ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ إلى الصنف الثاني .

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) المائدة : ٣٥ .
(٣) يوسف : ١٠٨ .
(٤) الحج : ٧٨ .
(٥) الحج : ٢٤ .
(٦) الزمر : ٢٢ .
(٧) المجادله : ٢٢ .
(٨) الشورى : ٢٨ .

« **لا عيش إلا عيش الآخرة** »[1] وقوله تعالى : ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان** ﴾[2] .

---

(١) أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة.

وفي رواية :

اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة

وفي رواية :

اللهم لا خير إلّا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

وقال الحافظ في الفتح : قال ابن بطال : هو قول ابن رواحة يعني : تمثّل به النبي ﷺ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

الفهرس